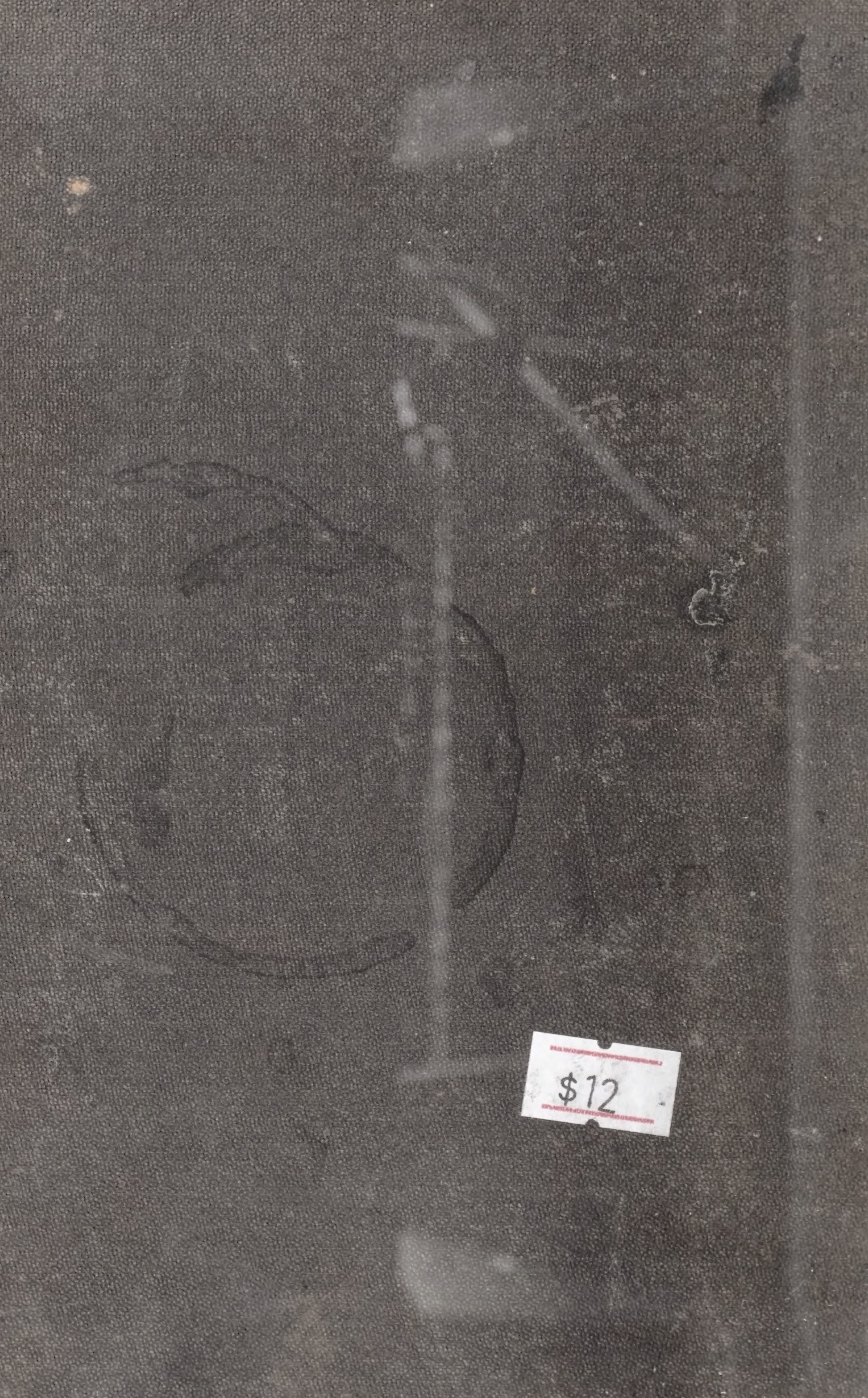

$12





VIE
DE
SAINT DOMINIQUE

PAR UN ANCIEN ÉLÈVE
DU
SÉMINAIRE SYRO-CHALDÉEN
DE
MOSSOUL



MOSSOUL
IMPRIMERIE DES PÈRES DOMINICAINS
1905

سيرة

مار عبد الاحد

منشئ رهبنة الاخوة الواعظين

لاحد تلامذة

مدرسة مار يوحنا الحبيب الاكليريكيَّة في الموصل



طُبع في الموصل

في دير الآباء الدومنيكيين سنة ١٩٠٥

IMPRIMATUR

✝ Fr. JOANNES DRURE, C. D. I.

Archiep. Babylon. Lat., Delegat. Apostolicus

مقدّمة

انّ الله عزّ وجلّ قد قضى بتدبير الهيّ الاّ يمتدّ الظلامُ على البسيطة الاّ ويعقبهُ نورٌ ساطعٌ . فكما انّ الليل اذا ما اتى بظلماتهِ وبرَد الارضَ برطوبتهِ عقبتهُ الشمسُ متجلببةً بالنور فبدّدت الظلماء واحمت الارض واحيت نباتاتِها هكذا ايضاً لم يسمح الربُّ بتسلّط سلطان الظلمة على الكنيسة الاّ ارسل قدّيساً سطع فيها كوكبُه فأَماط حجاب الظلمة واحمى القلوب وانعش فضائلها مُرْغِماً العدوَّ الجهنّميّ عدوَّ كلّ فضيلةٍ بأَنوار علمهِ وقداستهِ . فما زالت الكنيسةُ تتجرّعُ غصصَ الاضطهادات وتتخذّلُها العثرات وتناصبُها الهرطقات التي نقضت جمّاً من حقائق الايمان . ولكن لم تقدر مساعي ابليس وتُبّاعهِ اخزاهم الله مع ما كان لهم من المساعدات من قبل اركان العالم الغرّار ان تُفسد ايمانها وتشين آدابها . لانّ الله تعالى اقام جمهورَ علماء وقدّيسين دكّوا اساسَ كلّ ضلالٍ حال ظهورهِ واستأصلوا زؤان كلّ رذيلة حال ربوهِ

واذا امعنّا النظر في نهايةِ الجيل الثاني عشر نرى الكنيسة في خطرٍ مُبين تهبّ عليها عواصفُ الآفات من كلّ اوبٍ وصوبٍ وكانّ عساكر الهرطقات قد اشهرت حرباً عَواناً لتُهلكها . ولذا فكانت مضطربةً اضطراباً عظيماً من خارج . وممزّقةً من داخل أيَّ مُمَزّقٍ . فمن الخارج انهك اعداء الكنيسة الجيوش المسيحيّة فكسروها وصاروا يتهدّدونها برقّ العبوديّة . واليونان عوضاً عن ان يلقوا انفسهم في حضن

الكنيسة نظموا في سلكهم باقي الشرق فشقّ عصا الطاعة للكنيسة المقدّسة وانفصل انفصالاً تامًّا . وامّا حال داخل الكنيسة فكان يبكي لهُ حتى الصخور الجلمودية . لانّ سمّ الهرطقات كان يسري وينفذ حتى قلوب الذين كانوا يفتخرون بانهم كاثوليك فيخبطون في دياجيرها . والتراخي كان قد عمّ اولادها بل كهنتها فتطوّحوا في وِهاد الفتور والفساد وهكذا فسد الملح ولم يعُد يصلح لشيء واعتمت المصابيح النيّرة وصار الاقليروس سبب عثرةٍ للجميع . امّا يسوع فلم يترك عروسهُ تمسي هدفًا لهجمات اللعين بل مدّ لها يد المعونة وتذكّر ما وعد بهِ رسلهُ بقولهِ : « هوذا انا معكم حتى انقضاء الدهر » . فصرخ الى ابيهِ الازليّ قائلاً : يا ابتاه اغفر لهم . الهي الهي لماذا تركتَ عروسي . . . فنظر الآب الأزلي يصلّي على الصليب ورأى قلبهُ الاقدس مفتوحًا يجري منهُ ماء ودم لاجل الخطاة فتحنّن وفتح لاولاد الكنيسة كنوز الرحمة . ولدى نظره ماء جنب ابنهِ ودمَهُ رمزَي النور والمحبّة فطر قدّيسًا تجاببَ بالنور واتّقد بنيران المحبّة فقشع الظلام عن الهرطقات بنور تعليمهِ واقبل بهم الى سراط الهدى . قدّيسًا لم يفتأ يقاوم الرذائل والتراخي فاضرم القلوب الباردة بل واصعد في معارج الكمال رهبانًا اناروا العالم بمواعظهم ولفحوا الفساد بقداستهم . وهذا القدّيس هو مار عبد الاحد الغُزمانيّ (de Gusman) منشيء رهبنة الاخوة الواعظين والاخوات الدومنيكيات

الفصل الاوّل

في ولادة مار عبد الاحد وصباهُ (*)

وُلِد الاب المعظّم القدّيس عبد الاحد سنة ١١٧٠ للمسيح في كلاروغا (Calaruéga) وهي بلدةٌ صغيرة في كستيليا (Castille) من اعمال اسبانيا من والدين شريفي الحسب والنسب غنيّين قدام الله والناس . وكان اسم ابيهِ فيلكس الغزماني (Félix de Gusman) واسم امهِ حنّة الآزّية (Jeanne d'Aza) ولا يخفى ما لِاسرة آزا من النباهة والفضل . ولكن حنّة فاقت قداستُها شرفَ نسلها الرفيع فاستحقّت ان تُنظم في سالك الطوباويين . وعيدها يُحتفل بهِ في اليوم الثاني من شهر آب . ونظر الله بعين القبول الى تقواهما فامطر عليهما سحائب النعم والبركات إذ منّ عليهما بثلاثة بنين فاح عرفُ قداستهم بين الملإ . فالاول

(*) قد اخذنا مواد سيرة مار عبد الاحد عن كتب مورخين فضلاء يوثق بعلمهم وصدقهم وهاك بيان تلك الكتب :

١ً حياة القديس عبد الاحد للاب هنري لكردير العلامة الشهير

٢ً كتاب في حياة وموت القديس عبد الاحد للاب تِبرّي دابلدا الدومنيكي استخرجهُ من اللغة اللاتينية الى الفرنسية الاب كورى وزاد عليهِ حواشي مفيدة

٣ً حياة القديس عبد الاحد للاب براديو

٤ً ((السنة الدومنيكية)) وهي تحوي حياة القديسين الدومنيكيين ومن قام في رهبنتهم من الفضلاء

وحبًا بالامانة والصدق ضربنا صفحًا عن الخوارق والغرائب التي يعزونها الى القديس ولم نجدها في الكتب المذكورة

واسمهُ انطون انصبَّ على درس العلم والفضيلة وتثقّف فيهما ثمَّ ارتقى الى درجة الكهنوت وخصّص نفسهُ بخدمة الله تعالى وذلك بانقطاعه الى مساعدة الفقراء والمساكين في احد المستشفيات . وغب ان اضحى بعيد الصيت بقداسة سيرتهِ في قيد حياتهِ كرّمهُ الربّ ومجّدهُ بالعجائب بعد مماتهِ . والثاني هو الطوباوي مانيس (Mannès) هذا ترك العالم ودخل رهبنة الواعظين وصار قدوةً للرهبان في نقاوة سيرتهِ وقداستهِ . ويُحتفل بعيدهِ في اليوم الثلاثين من تموز . وامّا ثالثهم فهو قدّيسنا عبد الاحد . هذا ازداد عرف قداستهِ وانتشر فعبَّق برائحتها الاقطار والاصقاع وصار ابًا رهبنةٍ تعدّها الكنيسة بين افضل الرهبنات واشرفها

وقبل ميلادهِ سبق اللهُ واعلمَ امّه بخصوصهِ وذلك انّها رأت في الحلم كلبًا في فمهِ سراجٌ مضطرم يخرج من حشاها ويجول في الارض جمعاء لينيرها ويبدّد ظلمتها . فاضطربت حنّة لهذهِ الرؤيا ولم تفهم فحواها فحجّت الى دير مار عبد الاحد السيلوسي (de Silos) لتختلي في تساعيّةٍ وتتوقع شفاعة القدّيس في ولدِها . ففي اليوم السابع ظهر لها القدّيس وقال : « انّ المولود منكِ يُضحي نورًا للعالم كلّهِ وتعزيةً للكنيسة » . فعلمت ان الرويا لم تكن الاّ علامة عن دعوة ابنها العجيبة . ومنذ ذاك قدّمت ابنها ذبيحة لله تعالى وخصّصتهُ بهِ عزّ وجل . وبعد ميلادهِ اصطبغ بصبغة العماذ النقية وسمّي عبد الاحد اكرامًا للقدّيس عبد الاحد السيلوسي المذكور . ورأت اشبينتهُ رويا : انّ كوكبًا نيّرا نجم على جبهتهِ . واستمرّ اثر هذا النور على جبينه ما دام حيًّا بل وكان ينبعثُ منهُ ضياءٌ ياخذ

بجامع القلوب ويجذب الناظرين اليهِ . وبعد ولادتهِ باسابيع قليلة ذهب بهِ ابواهُ الى دير القدّيس عبد الاحد السيلوسي وقرّباهُ للرب على مذبح القدّيس نفسهِ . وبعدئذٍ اخذ رئيس الدير الانبأ باسكاز (Paschase) يقدّس قدّاس الشكر واذ التفت الى الجماعة قبل الدعاء ليقول « الرب معكم » وقع نظرهُ بغتةً على الطفل عبد الاحد وعوضاً عن ان يتلفّظ بهذهِ الكلمات : « الربُّ معكم » قال وهو يشير بيدهِ الى الطفل : « هوذا مصلح شؤون الكنيسة » . وعندما شعر بغلطتهِ اراد استدراكها فلم يقدر فاعادَها رغماً عنهُ ثانيةً وثالثةً . واذ سمع المطران بالامر ووزنهُ بميزان الفطنة حكم انّ في ذلك علامةً جليّة على انّ الطفل مدعوٌّ لرصّ دعائم آداب الشعب المسيحي المضجع اذ ذاك في زوايا الفساد الشامل . امّا امّهُ حنّة فلم تودِع هذهِ الدرّة الثمينة لأحد بل اخذت تحترس عليها . فارضعتهُ هي بنفسها وسقتهُ حليب الدين والتُّقى ممزوجاً بلبنها الأُمّي . فصار يمارس الفضائل حتى قبل بلوغهِ سنّ التمييز . فرأوهُ مرّاتٍ كثيرة وهو طفل بالكدّ يمكنهُ التخطّي يترك سريرَهُ سرّاً ويرقد على الارض كانهُ شعر بشقاء الانسان وسبق وعرف اختلاف احوال البشر . ولمحبّتهِ لهم لم يطب لهُ الرقاد على منام افضل من منام اخوتهِ الفقراء المساكين . وكانت امّهُ تُضرم في قلبهِ محبّةً حارّةً لله عزّ وجل حتى جعلتها كغريزةٍ راسخة في قلبهِ ولذلك فكان يتبع امَّهُ في زيارة الكنائس والاديرة . وعلى هذا القياس اخذت محبّتهُ للفقراء تنمو وتكبر مع سِنّه . هذا وستور صروف الزمان اسدلت على ابواب طفوليّتهِ واخفت زهرةَ قداستهِ فاستنشق هو وحدهُ عطر النعم التي كان الله يغمرهُ بها

ويجعلهُ حقيقاً بنشر لواء الحق بين الناس وسعر قلوبهم بنار محبّته تعالى

وفي السابعة من عمرهِ فوّض ابواهُ تربيتهِ الى خالٍ لهُ كان رئيس كهنة كميل (Gumiel) ليقوم بتثقيفهِ وتهذيبهِ · فحاكى الصبيّ سموئيل النبيّ بين يدي عالي عظيم الكهنة · فكان يلتقط من خالهِ بذور الفضائل ويزرعها بكلّ احكام في أرض قلبهِ الجيّدة · فامطر الرب عليهِ سحائب آلائهِ ونعمهِ فنبتت الحبوب المبذورة واعطت ثمرة الواحد ثلاثين وستين ومائة بل صارت اشجاراً باسقة تحمي تحت ظلّها لاطيور السماء لكن سكّان الارض · وهكذا لم يزل يزهو بالعمر والحكمة والنعمة · فكنت تراهُ اذ ذاك ذا مناقب عديدة ينسابُ باقدام الهمم في طريق العلم والفضيلة وينظر افعالهُ بعين الترقّب · ولذا فكانت مُزَيّنةً دائماً بدرر الحكمة والفطنة حتى قال عنهُ احد مؤرّخي حياتهِ : «خِيل شيخاً بزيّ صبيّ» · وماذا اقول عن عبادتهِ لسرّ القربان الاقدس التي لا يقوم بها وصفٌ · فكان يكثر من التردّد الى الكنائس لزيارة يسوع المسيح في سرّ محبّتهِ بل وجعلها سكناهُ الحقيقي · وكان يصبو غراماً الى ترتيل المزامير والاناشيد البيعيّة مع الاكليريكيّين و يحضر اجراء الاسرار المقدّسة و يخدم الكهنة ملتفّاً برداء الورع والعبادة · وما زادَ على ذلك فانهُ صان ثوب برارتهِ نقيّاً بلا دنس · فللّه درّهُ من صبيّ يحار في نعتهِ العقلُ ويقصر عن بيانهِ الفكر حتى ان الرب اخذ يمجّدهُ بعمل الكرامات في تلك الامصار · من ذلك انّهُ وضع يدهُ على اعمى فانفتحت عيناهُ وابصر · كلّ ذلك وعبد الاحد لم يبلغ الخامسة عشر من عمرهِ

وبعد ان قضى عبد الاحد سبع سنوات عند خالهِ آب الى بيت ابيهِ . فانشرح قلب اهلهِ وخفق . واذ رآهُ ابواهُ مغمورًا بالنعم الآلهية والمواهب الطبيعيّة متحلّيًا بالفضائل السامية ذا عقل ثاقب شبيهٍ بالكوكب الذي رأتهُ اشبينتهُ فصيحَ اللهجة ذا لسانٍ طليق يضارع السراج المضطرم الذي ابصرتهُ امهُ تحقّق لديهما تفسيرُ العلامات التي سبقت ميلادَهُ وعقبتهُ . ولاسيما امهُ فانّ قلبها أُفعم فرحًا عظيمًا ولم تملّ من التبصّر بابنها منذهلة من فضائلهِ . وصارت تسدي الحمد والشكر لله تعالى على ما خوّلهُ من النعم الفائقه . وكانت تودّ ابقاءهُ عندها ولكن اذ بان لها جليًّا ان الله اختارهُ لخدمتهِ لم تُرد ان تصدّ هذهِ القريحة العجيبة من ان ترتفع الى اسمى العلوم واغمضها بل اذعنت بكلّ فرح وسرور للاحكام الالهيّة واتفقت مع ابيهِ فعزما على ارسالهِ الى فلنسيا (Palencia) ليقرأ العلوم على معلّمين ماهرين . وكان في فلنسيا كليّةٌ انصات بها الزمان بعدد تلامذتها ومهارة معلّميها . فودّع عبدُ الاحد اهلهُ وقبّلتهُ امهُ مرّةً اخيرة على الارض لانها لم تشاهدهُ بعد الآ في السماء . وارتحل الى كليّةِ فلنسيا وانتظم في سلك الطلبة ولهُ من العمر اربع عشرة سنة . فطوبى لوالديهِ اذ اتيا بهذهِ الثمرة ولكن الطوبى ثم الطوبى لهما اذ رغبا في ارادة الباري عن محبتهما لابنهما وارتضيا ان يتركاهُ رغمًا عن شوقهما الى مكثهِ عندهما . كيف لا وبضحيّتهما هذهِ استحقّا شرفًا عظيمًا وثوابًا غير متناهٍ

الفصل الثاني

في درسهِ وارتقائهِ درجة الكهنوت

انّ العلمَ سراجٌ نيّرٌ للتقوى والتقوى قائدٌ امينٌ لهُ . فكلاهما يترافدان ويتعاضدان لبلوغ الغاية القصوى اعني التمتّع بهِ عزّ وجل . فالعلمُ سُلّمٌ معارجهُ الكائنات يرتقي اليهِ الدارسُ درجةً فدرجة . امّا التقوى فهي سَنَدُ السُلّم يعضد الراقي لِئَلاّ تزلّ قدمهُ فيتدهور الى اسفل او هي عبارة عن مهمازٍ ينكزُ الصاعدَ اذا ما وقف في احدى مراقي سُلّم المخلوقات واغري بها وينشّطهُ على التمسّك بذات الحق لا بظواهرهِ . وهكذا فالدارس التقيّ يرتقي سُلّم المخلوقات من دون ان يُفتن بحسنها وجمالها لمعرفتهِ انّها ليست الاّ صورةَ حُسنٍ وبهاءٍ اعظم . فيصعد من العالم الفاني الغرور الى العالم السرمدي وينظر محاسنهُ الخالدة العجيبة فيتمنّى الاتّحاد بهذا الخير الاعظم ويتعاطى الصالحات ويمارس الفضائل ويفرغ كنانة جهدهِ في الالتصاق بهِ لانّ صوت ايمانه يسمعه انّهُ كفوءٌ لنوال ذلك

فحالما دخل عبد الاحد مدرسة فلنسيا العظيمة عزم ان ينير بالدرس خطوات تقواه ويضع أُسَّ علمهِ على صخرة خوف الله الغير المتزعزعة . فصار يُشَدِّد على نفسهِ ويثير عليها حربًا عوانًا . واذ راى بعين بصرهِ وبصيرتهِ الاخطار العديدة المكتنفة فضيلتهُ الملاكية بين شباب لا يُقتدى بهم خشي فقدَها فصار يمارس تقشّفات شاقّة . وكان غالب الاحيان يرقد على الحضيض رغمًا عن صغر سنّهِ وكثرة اشغاله . وصار

يهرب من الجمعيات المخطرة ولم يكن يتعاطى مع المغرمين بالعالميات والجسدانيات الذين ركبوا مطايا الاوهام بل يوثر الصلوة في الكنائس والتأمل امام القربان الاقدس على اللعب والتنزيهات . وهكذا لم يدع الشيطان ينصب في كرم قلبهِ فخاخ الافراح العالميّة الخدّاعة بل أحرق جميع اميال الطبيعة بنار همتهِ وخاض بحر صبوّته برجلٍ غير مبتلّة حافظاً بلا دنس زنبق طهارته النقي باذلاً كلّ جهدهِ في درس العلم والفضيلة وتاركاً في لجج الاهمال ما ليس تحته كبيرُ امرٍ . ولنقاوته هذهِ اضحى حاذق الذهن يتلقّن العلم بسهولة . فانصبَّ على درسهِ كلَّ الانصباب حتى انّه حاز قصباتِ السبق على اقرانه وصار يفحص الكائنات ويتعمّق فيها ليرى في كلّ شيء اصبع الخالق لانّ غايتهُ في الدرس كانت ان يعرف كمالاتهِ عزّ وجل ليزداد حبًّا له . لكنّه رغمًا عن انعكافه على الدروس الادبية ونجاحهِ فيها لم يُغرَ بها بل تشوّق الى درس الحكمة الآلهيّة اعني به درس اللاهوت . فلما باشرهُ اخذته هزّة الطرب والسرور وكلف بدرس الكتاب المقدّس حتى انّه كان يُحيي الليل تقريباً بطوله مُفضِّلا التعب على الراحة ليغرف من هذا الينبوع الآلهي ماء النعمة العذب وزُلال العلم النقي فيروي بهما غليل قلبه الملتهب حبًّا ويذخرهما ليسقي النفوس العطشى . ومع شغله هذا لم ينكفّ عن صلاتهِ وعبادتهِ بل مثلما كان ينمو بالعلم كان يتقدّم في معارج القداسة . فكان يقضي زمانه بين شغل وصلوة مثابراً عليهما بحكمة منوّرة وهمةٍ لا تخشى مللاً . وجزاءً لانصبابه هذا كلّل اللهُ مساعيه باكليل حكمةٍ وفهم بهما كان يحل

مُعضِلاتِ المسائل ويزيّنها بجواهر الفضائل الكريمة وخصوصاً بجوهرة المحبّة له عزّ وجل . وقد أكّد لنا مار انطونينس انّ مار عبد الاحد ما اقترب من الله بالصلوة الاّ خُطف مفتتناً بهِ واقتبل نعماً جديدةً خارقة العادة

واذ احبَّ الله محبّةً سامية صار يُحب القريب حبّاً يعجز عن وصفه اللسان . لانّهُ لا يستطيع احدٌ ان يفرق محبّة القريب من محبّة الله وقد اعلن يسوع المسيح نفسهُ انّ هاتين الوصيّتين متشابهتان وبهما يقوم سائر الناموس والانبياء (متى . ص ٢٢ . عدد ٤٠) . فمن احبَّ الله من صميم قلبهِ احبّ ايضاً صورة الله واصدقاءهُ . فايّ خليقة على الارض اشبه بالله من الانسان فان الكتاب المقدّس يقول : « وخلق الله الانسان على صورتهِ » (تكوين . ص ١ عدد ٢٧) . وايّ خليقة احبّها الله بمقدار ما احبَّ البشر اذ بذل ابنهُ الوحيد حبّاً لهم : « وما من حبّ اعظم من هذا ان يبذل الانسان نفسهُ عن احبّائهِ » (يوحنا ص ١٥ : ١٣) . ولّما كان عبد الاحد يحب الله من كلّ نفسهِ فكان قلبهُ ايضاً يشفق ويرقّ للمساكين والبائسين بل كان يفضّل ان يغوص هو بنفسهِ في بحر الآلام والشجون احرى من ان يرى القريب معذّباً حزيناً . واثباتاً لذلك هاك ما فعلهُ في مدار السنين العشر التي قضاها في فلنسيا . وذلك انّهُ لما ضربت المجاعةُ اطنابها في اسبانيا سنة ١١٩٢ فانزلت باهاليها الويل والبلاء حتى صار الفقراء والمحتاجون يموتون جوعاً ولا احد يفتكر بهم ويهتم بحاجاتهم اخذ عبد الاحد يتصدّق عليهم بيد سخية من دراهم

واثاث وغير ذلك. واذ لم يبقَ معهُ شيءٌ باع كتبهُ العزيزة عليهِ والمشروحة بقلمهِ واحسن بثمنها الى المحتاجين. فاخذ الناس العجبُ كلَّ ماخذ لحرمانهِ نفسهُ وسائط الدرس التي لابدّ لهُ منها. واذ قيل لهُ في ذلك اجاب جوابًا اماط الحجاب عن حبّهِ للقريب وهو اول درّ اتانا من صدفة فيهِ قال: «هل اقدر ان ادرس في جلود مائتة عند مشاهدتي الناس يموتون جوعًا». فخرق كلامهُ قلبهم كالسهم الراشق واحتذوا مثالهُ باذلين الدراهم عن يد سخيّة لإغاثة المساكين. واتفق انهُ صادف يومًا امرأةً تبكي بحرقة قلب لان لم يكن بيدها ما تفدي بهِ اخاها من اسر المغاربة فنظر اليها بعين الرحمة وتحركت في قلبهِ عواطف الحنوّ. واذ كان قد تصدّق بكلّ ما لهُ على الفقراء ولم يعُد يملك شيئًا يغيثهم بهِ صار يفتكر في نفسهِ قائلاً: «قد اعطيتُ كلَّ ما املكهُ على حبّ الله فما لي لا امنح جسدي وحريّتي ايضًا حبًّا لهُ». قال هذا وقدّم ذاته للمراة مخاطبًا ايّاها: «تعزّي ايتها المراة المسكينة فاني قادر على الشغل فسلّميني الى المغاربة فديةً لاخيك لاني اريد ان اكون عبدًا عوضهُ». غير ان الله لم يأذن بذلك لانهُ اعدّه لنشل عددٍ وافرٍ من النفوس الساقطة في لجج الضلال والخابطة في ظلام المآثم. فلم ترتضِ المراةُ بتقدمته هذهِ واسمعهُ الربّ صوتًا خفيًّا يخاطبهُ قائلاً: «انّ هذهِ ليست دعوتك بل هي مذخورة لبطرس». وبعد عشرين سنة راى الرجل الذي اشار اليهِ الربُّ وهو لم يعرفه. وكان هذا بطرس نولاسك (Nolasque) الذي وقف نفسهُ لفداء العبيد وانقاذهم من ايادي المغاربة. فامعنِ النظر

ايها القارئ اللبيب في هذا الشاب ابن الامراء بل هاتوا يا ابطال المسيح.
يا بطرس نولسك ومنصور دو پولا وريمندس انتم الذين اذهلتم العالم
بشهامتكم ومحبتكم للقريب وهمتكم بانقاذ العبيد والمحبوسين. هلموا
احكموا وقولوا لنا اما ارتقى عبد الاحد الى درجة محبتكم البطاليّة وبلغ
ذروة كمالكم السامي ولم يكن لهُ من العمر سوى خمس وعشرين سنة

هذا وبعد ان درس عشر سنين في فلنسيا ارتقى الى درجة الكهنوت
وفُوّض اليهِ تعليم الكتاب المقدّس في الكلّية عينها لاجل علمهِ وحذاقته.
فابدى حينئذٍ سجايا وشمائل حميدة باهرة اذاعت صيتهُ بين الناس. فتقاطر
جماهير الطلبة من تلك الامصار الى كلّيّة فلنسيا ليسمعوا التعاليم التي
كان يُلقيها ملفانها الحديث العجيب وهو ابن خمس وعشرين سنة. واذ
كان يحلّ لهم بذكاء ودقّة اغمض المشاكل واصعبها صاروا يستشيرونهُ
ويكشفون لهُ خفايا قلوبهم طالبين منهُ تضميد كلوم نفوسهم والهدى لبلوغ
شأوَ الكمال



الفصل الثالث

في انخراط مار عبد في جمعية مار اوغسطينوس وكيفية استعداده لدعوته السامية

انّ مطران أُسما (Osma) مارتين البازاني (Martin de Bazan) اذ عاين سمّ الفساد الناقع الساري في اغلب الكهنة رتّب جمعية لقسوس كنيستهِ جنّدهم تحت لواء مار اوغسطينوس ليرتشدوا فيرشدون ويبذرون بذور الخلاص في بيداء قلوب الرعايا الذين امتدّ عليهم رواق الفساد ويبدون لِعيون الجميع أُسوَةَ الفضل والامثال الصالحة . ولذلك كان يطلب كهنةً غيورين صالحي السيرة مزيّنين بالفضائل الكهنوتية ليجذبهم الى جمعيتهِ فتتاصّل عروقها وتحمل اثمارًا ناضجة تغذي النفوس الجائعة الى قوت الرب . فاذ علم هذا السيّد الجليل ان في فلنسيا شابًّا فاضلًا من ابرشيّتهِ ذائع الشهرة بعلمهِ وقداستهِ عقد النية على نظمهِ في سلك جمعيته . فكشف عزمهُ لِدُمديِيكو الازيفيدي (Dom Diégo de Azévédo) وفوّض الامر الى عهدتهِ . وكان دُمديِيكو رئيسَ الجمعية وعضدَ المطران في ادخالها الى حيّز الوجود . وكان نبيه الجنس طائر السمعة ذا عقلٍ ثاقبٍ لهُ الباع الطولى في العلم وقد صرف عمره في الاعمال الخيريّة واشتهر بحسن خلقهِ وكمال سيرتهِ . فاتى الامرُ على اتمّ المرام لانهُ حالما خاض الكلام مع عبد الاحد اعتدّ قديسُنا هذهِ الدعوةَ آتيةً من الله اذ انهُ لم يزل يطلب من الرب ان يُمهّد لهُ سبيلًا بهِ

يشتغل لخلاص النفوس . فعزم اذًا ان يُدعن لمشورات اسقفهِ ويهجر الدنيا هجرًا تامًّا . فشمل الجذل قلب الاسقف عند سماعهِ ذلك واهتزّ اعضاء الجمعية فرحًا . فانخرط عبد الاحد في سلكهم وتوشّح بثوب جمعيتهم القانونيّة ولبس الانسانَ الجديد . واضاء اذ ذاك ضياءً ساطعًا حتى انّ العجب ذهب بمؤرّخي حياتهِ كلَّ ماخذ لِما ازدان بهِ من الفضائل السنيّة فنثروا عليهِ زهورَ المدح والثناء . وهاك ما قالهُ الطوباوي يوردان الساكسي (Jourdain de Saxe) معظّمًا ذكرهُ : « فضاء حينئذٍ « عبد الاحد بين اخوتهِ كسراجٍ وهّاج وفاح شذا زهرِ قداستهِ بين جميعهم « فعبّق نفوسهم محاكيًا عرفَ البخور في اوان الصيف . ولكنهُ لِتواضعهِ « عدّ نفسهُ آخر اخوتهِ فانذهل هؤلآء من تقواهُ الحارّة واقاموهُ رئيسًا « عليهم لتظهر اعمالهُ وتضيء لهم من عالي مقامهِ . امّا هو فكان شبيهًا « بالزيتونة التي تُنبت غروسًا كثيرةً او بشجرة السرو التي تنمو وتكبر . « فكان لا يبرح من الكنيسة ليلًا ونهارًا متفرغًا للصلوة ولا يحبّ « الخروج من الدير خوفًا من ان يفقد ساعةً من التامّل . وانعم الله عليهِ « بموهبة سكب الدموع من اجل الخطاة الماكثين تحت طيّ المعاصي « والنفوس المسجونة في المطهر والفقراء والمساكين . ولرقّةِ جنانهِ كان يتاثّر « لمصابهم ويضيق صدرهُ لِما يلمّ بهم من الرزايا . وكانت عادتهُ ان يطوي « الليل وهو يصلّي ويسامر الله وسمعوهُ مرارًا كثيرة يتنهّد وينحب « شفقةً على القريب . وكان يرفع اكفّ الضراعة الى الله ليمنّ عليهِ « بنعمة خصوصيّة وهي ان يُفعم قلبهُ بمحبّةٍ مُلتهبة لخلاص النفوس تحرقُ

« نيرانها شوكَ كلّ صعوبةٍ تعرض لهُ مُتيقنًا انهُ لا يُضحي عضوًا حقيقيًا
« لجسد المسيح ما لم يبذل نفسه بكلّيتها حسب استطاعتهِ ليربح
« النفوس لله على مثال مخلّص العالم يسوع المسيح الذي قدّم نفسه
« كلّها فدآءً عنّا . وتفرّغ لقرآءَة كتاب عنوانهُ « خطب الآباء القدّيسين »
« يبحث عن الرذائل والكمال الروحي . قاصدًا من ذلك ان يطّلع على
« سُبُل الخير والصلاح ليسلكها . فحصل على طهارةِ ضميرٍ نقيٍّ ونور
« تأمّلٍ سامٍ فارتقى الى درجة كمالٍ فائق »

ومكث عبد الاحد في الجمعيّة مدة تسع سنوات . وفي السابعة منها اي في سنة ١٢٠١ استأثرت رحمةُ الله باسقفه الجليل مارتين البازاني وتبوّأ الكرسيّ مكانهُ دُمدييكو . وفي ذلك الوقت اخذ عبد الاحد بالوعظ بكلام الله في النواحي المجاورة مدينة أُسما . ولابدّ انّهُ ثابر على ذلك الى سنة ١٢٠٣ حين مبارحتهِ اسبانيا كما سياتي الكلام في الفصل الآتي

انّ حياة عبد الاحد حتى الآن لم تكن الاّ مقدّمة لحياةٍ اجلّ واسمى . فالاربع والثلاثون سنة التي قضاها لم تكن الاّ مُمهِّدَةً لدعوتهِ الجليلة لانّ الربّ عزّ وجلّ يجعل الانسان يستعدُّ استعدادًا مناسبًا لدعوتهِ . فأنعم النظر ايها القارئ في كيفيَّة إعداد الربِّ قدّيسنا هذا ليكون رسولاً بل ابا رسلٍ يكسرون عن الكنيسة شوكة الضلال ويبدّدون شمل عساكرِهِ وهم ناشرون اعلام العلم والقداسة . فالكلب الذي رأتهُ امّهُ يخرج من حشاها ويجول في الارض ليُضرمها ويُنيرها كان صورةً حيّةً

لدعوتهِ الرسوليّة ودليلاً ناطقاً برهبنتهِ التي علت سائر الرهبنات علما وبلاغةً . واذ اراد الرب ان يصيّر عبدهُ رسولاً مكمّلًا وقدّيساً شهيرًا جعلهُ ان يولد من ابوين قدّيسين لانهُ عزّ وجل وضع في الانسان بعضَ فضائل ارثية غريزيّة تنتقل من الاباء الى الابناء فتغرس فيهم ميلاً طبيعياً يمهّد لهم طريق الاعمال الحسنة . وجعلهُ ايضاً يولد من عائلةٍ شريفة غنيّة ليستطيع ان يمارس فقرًا اختياريًا وتواضعاً سامياً لانّ هذا الجنس من الفقر يسمو فضلًا في الذين من ذات نفسهم قد رذلوا اموالهم ومناصبهم على فقر الذين هم رقيقو الحال قليلو المال . وجعلهُ ان يولد في اسبانيا خارجاً عن البلد الذي كان فيهِ مزمعاً ان يعظ وينذر لانّ اوّل فضيلةٍ في الرسول هي الكفر بنفسهِ والتجرّد عن اهلهِ ووطنه ولربّما كانت هذهِ اعظم ذبيحة يضحّيها الرسول فانهُ يهاجر وطنهُ العزيز ويتجشّم الاسفار مُمتطياً مطايا الاهوال ليحمل كلام الله الى اصقاعٍ شاسعة يجهل لغة قاطنيها . واستمرّ عشر سنين في كلّية فلنسيا مزيّناً عقلهُ بدرر العلوم اللازمة للامور الرسوليّة فصار فخر اولادهِ الذين حذوا حذوهُ فاناروا العالم بعلمهم ايّ إنارة . ثمّ انّهُ عانى مشقّات الحيوة الاجتماعيّة وقاسى اتعابها مدة تسع سنين اخرى كي لا يضع على عاتق اولادهِ وزرًا لم يكن قد حملهُ واختبر ثقلهُ . وصار رئيساً فيها ليقدر ان يحمل يوماً على عاتقهِ اعباء رئاسة رهبنتهِ . واولاهُ الله منذ نعومة اظفاره موهبة كبرى وهي كبح جسده وتقييده بسلاسل عيشٍ ضنكٍ وذلك لكي يتاهّب للاعمال الرسولية الشاقّة التي ما ثناهُ عن اتمامها سعيٌ ولا كدّ . لانّهُ

انّى يقدر الرسول على مكابدة اتعاب الاسفار والحرّ اللآفح والبرد القارس والجوع الضور والضرب الشديد والسجن وسوء الحال ان لم يُسكت صوت الهوى ويقهر جسده قبل الوقت . وخوّلهُ الله شوقًا عظيمًا الى الصلوة والتمسّك بعروتها لانها هي سلاح الرسول بها ينزل قوّة من العلاء تلج اعضاءهُ فيتشدّد ويقوّض قوات الجحيم ويليّن القلوب الصلبة . وما فاق كلّ ما سبق هو انّ الله اضرم قلبهُ بنار محبّة متأجّجة تسوقهُ الى بذل النفس والنفيس في نشل الخراف الهائمة على وجهها في بيداء المآثم وادخالها الى الحظيرة على انهُ خلوًّا من هذهِ المحبّة لا يكون الرسول رسولاً . فهي تكلّل هامتهُ بغارِ فخرٍ ومجدٍ لا يذوي . اخيرًا منحهُ الربّ قائدًا بل صديقًا صدوقًا ارشدهُ الى معرفةِ احوال زمانهِ وهو استفهُ المطران دييكو وذلك لكي يكشف لهُ جروح عصرهِ فيستطيع مُداواتها وسكب بلسم الشفاء عليها



الفصل الرابع

في سفر السيّد دييكو وعبد الاحد الى دَنمرك ثمّ الى رومة

انّ احسنَ ودٍّ واثبت حبٍّ هو ما نُسج على منوال الفضيلة فيكون حينئذٍ وِثاقًا يجمع بين قلبين متآلفين ليُحبّا الله معًا . فاذ كان السيّد دييكو يحاكي عبد الاحد علمًا وفضيلةً لم يلبثا ان تآلفا وصارا صديقين حميمين مفتونين بمحبّة الله والقريب فبارك الله على تحابّهما المقدّس . الاّ ان دعوة السيّد دييكو ما كانت الاّ مقدّمة لدعوة عبد الاحد فانهُ كالمعمذان الساعي اعدّ السبيل ووطّأهُ ثمّ اتى عبد الاحد فضاء وسطع وفاق سابقهُ

فاذ بلغ عبد الاحد أَشُدَّهُ بالعلم والفضيلة واضحى جديرًا بالإِنذار باسمهِ تعالى ذا خبرةٍ ودرايةٍ وعقلٍ ثاقبٍ ينفذُ الاسرار الطبيعيّة بل الالهيّة نفسَها وذا ارادةٍ قويّة تخوض الاهوال وتكسر الصعوبات وهي لا تُقهَر ولا تُغلَب وذا قلبٍ شفوقٍ مُحبٍّ لا يودّ شيئًا خارجًا عن محبّة الله حكم سبحانهُ وتعالى ان لا يبقى هذا السّراج الساطع تحت المكيال بل ان يوضع فوق المنارة فينشر انوارَهُ اللامعة على وجه المعمور فوجّههُ الى المحلّ المعيَّن لهُ بدون ان يشعر بما دبّرهُ لهُ تعالى

ففي سنة ١٢٠٣ رام الفونس الثالث ملك قسطليا ان يخطب لابنهِ اميرةً من بلاد دَنمرك (Danemark) . فاختار لهذهِ المهمّة السيّد دييكو وسألهُ ان يقوم بأعبائها . فهذا المطران الحكيم اصطحب معهُ

صديقهُ الودود عبد الاحد ليكون تسليةً لهُ في سفرهِ وزينةً لموكبهِ . فبعد ان اخذا بالرحيل راحا اسيرَي الحزن والاكتئاب عند مشاهدتهما أعلام الكثلكة قد خُفضت وخَفقت مكانَها بنودُ الهرطقة . ثمّ قدما مدينة تولوزا (Toulouse) فنزلا في بيت رجلٍ ليبيتا ليلتَهما فاحسَّ عبد الاحد انّ مُضيفهما هرطوقيّ فاشتعل حميّةً والتهب غيرةً ولم يشأ ان يتركهُ في ضلالهِ وإن لم يُقِم معهُ الاّ زمنًا وجيزًا . فعلق يتوسّل الى الرحمة الالهيّة من اجلهِ وصرف الليلَ معهُ وهو يخاطبهُ ويرشدهُ الى سبيل الحقّ . فما انشقّ رواقُ الليل الاّ وتمزّقت ستورُ ظلمات الاوهام عن عقل الهرطوقيّ واشرقت شمس النعمة في جلد سمائهِ فنبذ حالاً اضاليلهُ ورجع رجوعًا صادقًا الى الايمان الصحيح . وهذهِ اول فريسةٍ نشلها عبد الاحد في تلك البلاد من مخاليب ابليس اخزاهُ الله

وبعدَ ان جحد الهرطوقيّ ضلالَهُ اخذ عبدُ الاحد يُسدي الحمد والشكر لله تعالى . ثمّ تحرّك بالروح واخذتهُ عواطف الشفقة والرحمة على النفوس المفتداة بدم فاديهِ الحبيب وشعر في نفسهِ انّ دعوتهُ هي ان يكون رسولاً بل ان يُنشيء رهبنةً تَحزّ عنق الضلال بسيف علمِها ووعظِها وتردّ هجمات الفساد خائبةً متقهقرةً بدافع امثالها وارشاداتها . فغادر مدينة تولوزا وقد اضمر في قلبهِ امرًا تلألأ بهِ مستقبله

وواصل السيّدُ دييكو وعبدُ الاحد سفرهما وفي طريقهما لاقى مار عبد الاحد في مدينة باريس الملكةَ القدّيسة بلانشا (Blanche) امّ مار لويس ملك فرنسا . وكانت من اقرباء امّهِ حنّة الآزية .

فرحبت به وبمطرانه واحسنت مثواهما . ولما وصلا الى بلاد دنمرك وتيسّرت لهما خطبة الاميرة رجعا وأخبرا الملك الفونس بذلك ثمّ عادا بأبهةٍ عظيمة الى حيث كانت الاميرة المخطوبة ليزفاها الى خطيبها . غير انّها قضت اجلها في اثناء ذلك . فأنفذَ المطران ساعياً الى الملك ليُخبرهُ بالامر . امّا هو فشخص مع عبد الاحد الى رومة قاصدَين زيارة الاعتاب الرسولية وكان جالساً اذ ذاك على سدّة الخلافة البطرسية انوكنتيوس الثالث

فمن يصف لنا عواطف هذين الكاهنين اذ جَثوا عند ضريحي الرسولين بطرس وبولس وقلبهما يأبُّ الى الاقتداء بهما . مَن يصف لنا ما شعرا بهِ عندما ألقيا نظرهما على قبور الشهداء وهما متشوّقان الى سفك دمهما على حبّ الذي هراق دمهُ حتى آخر نقطة لاجل خلاصنا . امّا السبب الذي بعث السيّد دييكو على الحجّ الى رومة فكانَ ان يطلب من الحبر الاعظم التخلّي عن كرسيّهِ الاسقفي لينقطع الى الوعظ عند البرابرة كي يمكنهُ نوال موهبة الاستشهاد . فيا للتواضع العظيم ويا للمحبّة العجيبة . كيف انّ مطرانًا مُمجدًا نديمَ العظماء والملوك يقصد ان يتنزّل عن كرسيّهِ ويؤثر العيشةَ الفقريّة على الملكيّة . للهِ درّهُ فانّهُ استحبّ خمولَ الذكر والاتعاب الرسوليّة الشاقة بين شعوبٍ بربريّة على المناصب العالية وسياسة الشعوب المسيحيّة . امّا الله فلم يسمح بذلك . فحالما عرض الاسقف طلبتهُ انكرها الحبر الاعظم وأَمرهُ بالرجوع الى كرسيّهِ . فاذعن السيّد دييكو لاوامر الحبر الاعظم وارتحل

هو وعبد الاحد آئبين الى بلاد اسبانيا في سنة ١٢٠٥ . وفي طريقهما دعتهما نفسهما الى زيارة دير رهبان مار بندكتس حيث كانت الحيوة الرهبانيّة زاهية زاهرة . فحار لبُّ السيّد دييكو لدى مشاهدتهِ هذهِ العيشة الملائكيّة واظهر شوقهُ الى الانتظام بسلكهم . فاجابوهُ الى ذاك ومنحوهُ ثوبَ رهبنتهم . فسلا قلبهُ عن الحيوة الرُّسليّة عند البرابرة . واما عبد الاحد فاذ كان يفكّر ان يجمع بين الفضائل الرهبانيّة والعيشة الرُّسليّة لم يقتدِ بصديقهِ ولم يلبس الاسكيم الرهبانيّ الاّ انّهُ محض تلك الرهبنة الحبَّ وادّى لها الاحترام الجزيل . وبعد ان اقاما زمانًا يسيرًا في الدير غادراهُ ومعهما بعض الرهبان اخذهم السيّد دييكو معهُ وبلغوا مدينة مُنبليَر (Montpellier) في بلاد لنكدُوك (Languedoc) من اعمال فرنسا

الفصل الخامس

في حالة الاقليروس وتدبير السيّد ديبكو

وكان حينئذٍ في مدينة مُنبايَر أرنول (Arnault) رئيس رهبنة مار بندكتس ورأول(Raoul) وبطرس الكستلناوي(Pierre deCastelnau) هولآء كان قد وجّههم قداسة البابا لمقاومةِ الهراطقة ودحض تعليمهم وانعم عليهم بسلطان مطلق يتعاطونهُ في ما يأول الى نجاح الكثلكة . لكن مساعيهم ذهبت ادراج الرياح وتضعضعت آمالهم وذلك لانّ الداء كان عضالاً في تلك البلاد والفساد قد عاث بها وفشا حتى انتهى الى الرؤساءِ الدنيويّين بل الروحانيّين ايضاً . فان امير تولوزا ريمُند السادس (Raymond VI) كان يدافع عن الهراطقة علانيةً ويرفع شانهم ويشملهم بحمايتهِ . وكان الاكليريكيّون يشاهدون ما يفعلهُ الهراطقة وهم صمٌّ بكمٌ لا ينطقون بشيءٍ بل كانوا يحازبونهم ويرفعون معهم لواء العصيان على الكنيسة المقدّسة . فتركوا جيوش الذئاب المنافقة تهجم على خراف المسيح وتخطف منها ما تريد فاستحقّوا ان يدعوا لصوصاً دخلوا حظيرة الخراف من غير بابها . فمنهم من عرج الى المناصب الكهنوتيّة بالذهب والفضّة وآخرون تولّوا الحلّ والربط في كنيسة الله وهم شبّانٌ قاصرو الباع بل اولادٌ غير مدركين . وذلك لا لأَجل غايات آلهيّة لكن لأَغراض بشريّة . فتمسّكوا بالدنيويّات ودهوروا شرف الكهنوت السامي في لجج الذلّ والهوان حتى ان الشرفاء ابت نفوسهم

ان يرتقي اولادُهم الى الدرجات الكنسيّة بل صاروا يرفعون خَدَمهم اليها ليمكنهم الحصول على العشور فسقطت حال الكهنة في الياس والقنوط واصبح اسم الاكليريكي مَثَل العار يضرب بهِ الناس لاظهار نفورهم من قبيحٍ يكرهونهُ . فعوضاً عن أن يقولوا : « اجدر بي ان اموت « او ان اكون يهوديًّا من ان اصنع هذا » . قالوا : « احب اليَّ ان اكون « اكليريكيًّا من ان اصنع هذا » . وزِد على ذلك تظاهر الاساقفة والمطارين بالأُبَّهة والفخفخة . فانّ الهراطقة المتزيّيين بزيّ الحملان كانوا يجذبون البسطاء قائلين : « كيف تثقون بكلام هولاء اذ ينذرونكم « بعلّمٍ فقيرٍ وهم اغنياء . ويعظونكم بمسيح كان يمشي ويتعب وهم « متوشّحون بالثياب الناعمة لا يركبون الاّ الجياد المطهّمة الأَصيلة . وامّا « نحن فلا نعظكم بشيءٍ الاّ مارسناهُ قبلكم . وما رايتُنا الاّ الفقر « والصوم والتواضع . فمن الثمرة تُعرف الشجرة . فما الكنيسة اذاً الاّ امُّ « الاضاليل والفساد » . فيا لها من اقوال مُموَّهة بالكذب والبهتان . فاولئك الهراطقة كانوا يستبيحون خفيةً اقبح الذنوب والمنكرات حتى اذا ما فحصنا عن سيرتهم ياخذنا العجب من انّ الانسان امكنهُ الهبوط في هذهِ الحالة الشنيعة . فانّ افعالهم وتعاليمهم ما كانت الاّ افعال ابليس نفسهِ . ومن اضاليلهم الفظيعة قولهم انّ الزيجة إثم وعبادة المسيحيّين ضلال ويسوع المسيح لهُ المجد ليس هو ابن الله ومريم البتول القدّيسة ليست عذراء وقتل الكهنة واجب بل ضروريّ . وكانوا يُبيحون السكر ومنهم من جهّز عساكر للنهب والسلب

فاذ عاين ذلك القصّادُ تضعضعت عزائمهم وخارت قوتهم وشعروا بعجزهم عن كسر شوكة الهرطقةِ . فاجمعوا على إرسال مُلخَّص حالهم الى الكرسيّ الرسوليّ كي يتنزّلوا عن منصبٍ لا يمكنهم القيام بمهامّاتهِ . ولكن ما لا يُستطاع عند الناس هو مستطاع عند الله . فبينما كانوا يردّدون عزمهم هذا في أذهانهم سمعوا بوصول السيّد دييكو اسقف أُسما . فدعوهُ الى مواجهتهم فلبّاهم فاستقبلوهُ بما لا مزيد عليهِ من الحفاوة وسألوهُ ان ينظر في أمرهم ويتحفهم بمشوراتهِ لأنهم كانوا يعتبرونهُ رجلًا بارًّا حسنَ الإبالة ذاق من الامور حلوَها ومرَّها ذا عقلٍ ثاقب بهمّة لا تكلّ من تعزيز اسباب الدين الكاثوليكيّ . فأخذ اوّلًا يستعلمهم شؤونهم وعوائد الهراطقة واخلاقهم فوقف على انّ الهراطقة يجذبون الناس الى شيعتهم بطرقٍ مُقنعةٍ كالوعظِ والتظاهر بالقداسة . وامّا القصّاد فكانوا مُحتفّين بفخفخة عظيمة من خدَمٍ وحشمٍ وخيل وثيابٍ ناعمة . فقال لهم : « انى « ترومون ان تهدوا الى الايمان الصحيح بوعظٍ تصحبهُ الكبكبةُ أُناسًا « لا يدّعِمون الآ على صخرة الامثال الصالحة . بل كيف تظفرون بهم هم « الذين يُغوون النفوس البسيطة بظلّ الفقر المسيحيّ وظاهر الزهد « الانجيليّ . فمنهجكم هذا لا يمسّ قلبهم ولا يحسنُ بعينهم بل انّهُ « يصدّهم عن مُباشرة الفضائل فالاولى بكم ان تقاوموا الامثلة الرديّة « بالصالحة وتحرقوا زؤان الضلال بنار الحقّ وتردعوا القداسة الكاذبة « بالصحيحة » . فسالهُ السفراء قائلين : « ماذا تشير اذن علينا ايها السيّد « الجليل » . فأجابهم بإلهام الروح القدس أنْ : « اصنعوا ما أنا فاعلهُ » .

وفي الحال دعا حشمهُ وأَمرهم بالاياب الى أُسما بصحبة المواكب التي معهُ ولم يستبقِ عندهُ الآ عددًا نزرًا من الكهنة من جملتهم مار عبد الاحد صديقهُ الفضيل المحترق بنار الغيرة على قيادة البشر الى مدارج الهدى . فأَثَّر كلامُهُ في القصّاد وعمل مَثلُهُ في قلوبهم . فانشأ فيها القوَّةَ الرساليّة وأحيا الآمال الحسنى . فصرفوا خدّامهم واستغنوا عن الأَمتِعة بالكتب اللازمة للمجادلات . وعزم حينئذٍ عبد الاحد عزماً مكيناً ان يقفَ نفسهُ للوعظ والانذار فتنزّل عن مقام رئاسةِ جمعيةِ أُسما وصار يُدعى الاخ عبد الاحد



الفصل السادس

في مجادلة عبد الاحد الهراطقة وتشييده ديرًا للنساء

بعد ان اطلق القصّادُ خدّامَهم شمّروا عن ساعد الجدّ للقيام بالإنذار بالايمان الحقّ ذاهبين مشاةً بفقرٍ طوعيّ تحت قيادة أسقف أُسما . امّا ارنول رئيس رهبنة مار بندكتس فقفل راجعًا الى بورغونيا (La Bourgogne) ليحضر مجمع رهبنتهِ العموميّ وعهد الى رفقتهِ ان ياتيهم باثني عشر قسّيسًا عند عودتهِ . وامّا القاصدان الآخران رأول وبطرس والسيّد دييكو وعبد الاحد وبعض كهنة أُخر فقصدوا مدينة بزييِر (Beziers) ومدينة كركسون (Carcassone) راجلين وباذرين بذور الخلاص في المدن والقصبات حتى في القصور . وكانوا ينذرون المسيحيّين في الكنائس وينهرُونهم عن سوءِ العمل . ويخوضون المجادلات مع الهراطقة في بيوت مخصوصة وكانوا يبقونهم في حرّية تامّة لبسْط تعاليمهم والمدافعة عنها . ولم يلبث عبد الاحد زمنًا طويلًا حتى ظهرت قداستهُ وتلالأ نورُ علمهِ

ففي شهر تموز سنة ١٢٠٦ أُقيمت مجادلة مشتهرة في مدينة فانجو (Fanjeaux) في قصر السيّد غليوم الدُرفوري (Guillaume de Durfort) فأعدّ الكاثوليك مقالاتٍ وفصولاً عديدة فيها سردوا البيّناتِ الساطعة لدحض الهراطقة . وبعد ان طالعوها فيما بينهم ليتحرّوا احسنَها فيقاومون بها اعداءهم آثروا مقالة الاخ عبد الاحد لِما اظهر فيها من العلم والبلاغة .

فلمّا التأم المجمع وحضره جمٌّ غفيرٌ من الكاثوليك والهراطقة أُقيم باتّفاق الكلّ ثلاثةُ رجالٍ ليحكموا ويبيّنوا ايّ مذهب احقّ بالاتباع لكن القضاة بعد ان دارت بينهم المباحثات المستطيلة لم يتوافقوا في ابراز الحكم فاجمعوا على القاء كتابةِ الهراطقة وكتابة الاخ عبد الاحد في النار مدّعين انّ الكتابة التي لا تضرّها النار هي التي تحتوي على المذهب الصحيح. فاوقدوا نارًا عظيمة في حضور الجماعة والقوا فيها الكتابتين ففي الحال لفحت كتابَ الهراطقة وامّا كتابة الاخ عبد الاحد فاستمرّت سالمةً صحيحة بل دفعها اللهيب الى البعد. فالقوها ثانيةً وثالثةً فرفعتها اللهبة ورمتها على جسرٍ من خشب كان في ذاك البيت واحرقت من الجسر ثلاثةَ مواضع دون ان تضرّ الكتابة البتّة. وبذلك اعلن اللهُ جليًّا قداسة مؤلّفِ الكتاب وصدق الحقائقِ المدرَجة فيهِ. والدارُ التي حدثت فيها الاعجوبة باقيةٌ الى يومنا هذا وقد جُعلت معبدًا اغناهُ الاحبار العظماء بافضال عميمة. وحتى الان يُشاهد في الحائط المقابل هيكل مار عبد الاحد الخشبة التي وقفت عليها الكتابة وتحتها الحجر الذي وُضعت عليهِ الاثافيّ لإضرام النار

واشهر مفاوضة جرت بين الكاثوليك والهراطقة هي التي قُضيت في مدينةِ مُنرئال (Montréal) سنة ١٢٠٧ فان الجدال استمرّ مدّة خمسة عشر يومًا وزيد عليهِ الكتابات كالعادة. وبما انّهُ لم يبقَ للمؤمنين ثقةٌ في الاقليروس أُقيم ثلاثة رجال علمانيّين ليحكموا في براهين الفريقين. فهؤلآء كانوا يتظاهرون علانيةً بالعدل والانصاف ولكنّهم كانوا

يحامون عن الهرطقة خفية . فاذ رأوا انّ تعاليم الكاثوليك مُثبَّت بحججٍ نيّرة وبراهينَ قاطعة لا تُقاوَم لم يبرزوا حكمهم بل اخذوا كُتبَ الكاثوليك متعلّلين بأنّهم سيصرفون الهمّة والعناية الى التنقيب عنها . فلم يردّوها ولا بتّوا حكمهم مُريدين من ذلك صدّ الكاثوليك عن الظفر بالهراطقة . ولكنّ الربّ حامى بنوع عجيب عن فعلة كرمهِ الغيُر وخيّبَ آمالَ الهراطقة وأفعم الكاثوليك سرورًا وحبورًا . وذلك انّ عبد الاحد صرّح يومًا العقائد الكاثوليكيّة بكلام فصيح فطلب منهُ بعضُ الهراطقة الكتابَ الذي الّفهُ مدافعةً عن الايمان واعدين بالاذعان لهُ اذا ما استصوبوا حُججهُ . فدفعَهُ اليهم القدّيس فتفحّصوا عنهُ ليلًا وتعمّقوا فيهِ واستنفدوا وسعهم في دحض دلائلهِ الدامغة الضلال فلم يستطيعوا . فقال حينئذٍ بعضهم : « لنُلقِ الكتاب في النار فان احترق نطق « الحقّ انّ ايمانَنا قويمٌ والاّ فتعاليمُ هولآء صحيحٌ » . فاتّفقوا على ذلك والقوا الكتابْ في وسط اللهيب فلم يضرّهُ شيئًا بل دفَعَهُ خارجًا عنهُ . فصرخ احدهم ان : « ليُلقَ ثانيةً ثمّ ثالثةً » . فكان الامرُ كالاوّل . ولكن هذهِ الآية لم تلين قلوبهم الجلموديّة بل استمرّوا متمسّكين بعروة الضلال واخذوا على نفوسهم ان لا يكشفوا لاحدٍ هذا الحادث بل ان يطمروهُ في لجّة النسيان . لكنّ الله مُشرّف قديسيهِ شاء ان يُعلنَ الامر كي يمجّد عبدهُ . وذلك انّ احدهم لم يتمالك ان فاض صدرهُ بالسرّ علنًا . وبذلك أذعَن للايمان الصحيح مائة وخمسون هرطوقيًا رغمًا عن سوء تصرّف الحكّام الثلاثة وعدم صدق طويّتهم . ويزيد المؤرّخ

قائلاً ان الذي توسّط بين الاخ عبد الاحد والهراطقة لطلب كتابهِ هو هوقص على سماعهِ هذهِ الاعجوبة

ولاحظ عبد الاحد انّ أخصّ وجهٍ وجدهُ الهراطقة للترقّي في سلّم النجاح هو اتّخاذهم بنات شريفات قد انحطّت عائلاتهنّ ولم تعُد تستطيعُ القيام بتهذيبهنّ كما يليق بشأنهنّ ورأى ايضاً اجتهاد الهراطقة في تثقيفهنّ حسب مرغوب اهلهنّ ليضحين تابعاتٍ لهم ومساعدات مُفرغات وسعهنّ في اغراء غيرهنّ بشيعتهم فافتكر ان يتلافى هذا الداء وصمّم على تشييد ديرٍ فيهِ يقتبل البنات المعرَّضات للوقوع في حبائل الضلال

وكان في قرب فانجو في قرية بروي (Prouille) كنيسةٌ مؤسّسة على اسم العذراء القدّيسة يكرمها الناس اجلّ اكرام . وكان الاخ عبد الاحد يحبّها كثيرًا وما زال يتردّد اليها ويصلّي فيها . ففي ليلة عيد القدّيسة مريم المجدلية شفيعة التائبين الواقع في اليوم الثاني والعشرين من شهر تموز كان يصلّي على تلّ مدينة فانجو طالبًا من الله ان يُريهُ محلاً مناسبًا لتشييد ديرٍ للبنات المعرَّضات لخطر فقد الايمان . فراى حينئذٍ كُرةً نيّرة انحدرت من السماء واستقرّت على الكنيسة المذكورة . وشاهد هذا ايضاً في الليلة الثانية والثالثة في ذلك الوقت بعينهِ . فتحقق انّ ذلك امرٌ الهيٌّ وشدّد العزائم على إقامة دير في تلك القرية بالقرب من مدينة تولوزا . فأجرى بالعمل ما نوى بالفكر برضى السيد فُلك (Foulques) اسقف مدينة تولوزا ومعونتهِ . وكان هذا من رهبنة مار بندكتس وقد تقلّد حديثًا رعاية ابرشيّة تولوزا وكان يُشهد

لهُ بنقاوة السيرة والايمان الحيّ حتى انّ الفعلة الانجيليين امتلأت قلوبهم فرحًا وصاروا يسدون الحمد والشكر للهِ عند سماعهم انهُ تبوأ هذا الكرسيّ . ولم يلبث السيّد فُلك ان صار صديقًا حميًا لعبد الاحد وساعدهُ بكلّ وسعهِ على تحقيق امانيهِ في تاسيس الدير . وبعد زمنٍ وهب للراهبات الكنيسة المجاورة لهنّ التي تكلّمنا عنها أعلاهُ . ولم يكُن هو الاوّل في ذلك فان السيّد برنجير (Berenger) اسقف مدينة ناربونا (Narbonne) دفع لهنّ كنيسة القدّيس مارتينوس مع كلّ الواردات المتعلّقة بها . وبعد ذلك انعم عليهنّ الامير سيمون المونفوريّ (Simon de Monfort) وغيرهُ بعطايا وافرة فاضحى الدير زاهرًا شهيرًا . ولمّا شبّت نارُ الحرب المعروفة بحرب الالبيجيّين دكّ هولاء كنائس الكاثوليك وهدموا الاديرة لكنّهم لم يمسّوا قط دير راهبات عبد الاحد لانّ اعمال القدّيسين قادرة ان تمسّ قلب الله العليّ فتجلبُ لها الرحمة . وانّنا لا نعرف حقّ المعرفة ما كان لباس الاخوات وقوانينهنّ . ويترجّح انّهنّ كنّ يلبسن ثوبًا من صوف ابيض وفوقهُ رداء مُشبَع الصبغ . وكان لهنّ رئيسةٌ تحت قيادة عبد الاحد . وهو ألقى على عاتقهِ في بداءةِ الامر أعباء التدبير الروحيّ والجسديّ لكنّ اشغالهُ الرسوليّة لم تسمح لهُ بالمكث الدائم في قرية بروي ففوّض حينئذٍ الادارة المادّيّة الى رجلٍ يُدعى غليوم كلارة (Guillaume Claret) ودعا ايضًا كاهنًا او كاهنين لعضدهِ في الادارة الروحيّة . واقام عبد الاحد ومعاونوهُ في قسم من الدير خارجٍ عن مسكن الراهبات . ويُشاهد حتى الآن

بالقرب من المحلّ الذي كان يسكنهُ عبد الاحد حوضٌ منقور في الصخرة فيهِ ماء لا ينزف ولا ينشف وكان ينفرد القدّيس في ذلك الموضع ويسجم الدموع السخينة

فمن يصف لنا الفرح الذي شمل قلبهُ بفتحهِ اوّل مرّة بابَ الدير للبنات اللواتي أردن ان يخصّصن ذواتهنّ بالله: وكان ذلك في اليوم السابع والعشرين من كانون الثاني الواقع فيهِ عيد مار يوحنا الحبيب عند اللاتين. فشرع الناس يلقّبون الاخ عبد الاحد برئيس دير بروي. فهكذا ابتدات الرهبنةُ الدومنيكيّة بنساء فقيرات ضيّقات اليد كما انّ خلاص البشر بدأ في حشا بتول مسكينة. فحاكت الراهباتُ مريم العذراء اذ على مثالها كنّ مثابرات على الصلوة رافعات اكفّ الضراعة الى العلاء لكي يمطر الله سيول نعمهِ على البذور التي يبذرها الاخوة الواعظون في اراضي قلوب الهراطقة والمومنين



الفصل السابع

في ظفر عبد الاحد بالهراطقة وسفر السيّد دييكو الى اسبانيا وموته فيها

وبعد تشييد دير برويّ بزمنٍ وجيز وعظ القدّيس في كنيسة فانجو . وبعد اتمامهِ خطبتهُ استمرّ في الكنيسة يصلّي . فاتى اليهِ تسع نساء شريفات رفيعات الشان وانطرحن على قدميهِ قائلات لهُ : « يا خادمَ الله « أغِثنا غوثًا . فان كان صدقًا ما نطقتَ بهِ اليوم في منبر الوعظ فما « قد انقضى زمنٌ مديدٌ وعقلنا تائهٌ في بيداء الضلال . لانّ من تدعوهم « هراطقة نعتبرهم نحن اناسًا صالحين وحتى الآن آمنّا بما علّموهُ . وكنّا « كَلِفاتٍ بهم من صميم قلوبنا . امّا الآن فما نعلم ما نرتإي . فاشفق « علينا يا خادم الله ورقّ لحالنا وصلِّ الى الربّ ليعرّفنا الاعتقاد الذي « على موجبهِ يجب ان نحيا ونموت كي نفوز بالخلاص » . فصلّى عبد الاحد ثمّ أجابهنّ قائلًا : « طبنَ نفسًا فانّ الله الذي لا يشاء هلاك « احدٍ مزمع ان يريكنّ لأيّ ربٍّ خضعتنّ حتى الآن » . وفي الحال شاهدنَ سنّورًا ضخمًا بشعًا خرج من بينهنّ وكان مهولًا أسودَ لهُ عينان مُلتهبتان متجاوزتا القياس ولسانٌ عريضٌ دامٍ ومُدلّى الى نصف جسدهِ وذنبٌ قصير مرفوعٌ الى فوق وانبعث من ذلك الحيوان النجس رائحة كريهة لا تحتملُ نتانتُها . وصار يدورُ بالقرب من النساء وقد استُطيرت ألبابهنّ روعًا . ثمّ وثب الى حبل الناقوس وتسلّقهُ كلّهُ وغاب

مُخلِّفًا رائحةً لا اكره منها . فالتفت حينئذٍ عبد الاحد الى النساء الشريفات وقال لهنّ : « هذا هو المولى الذي خدمْتُنَّهُ وعبدْتُنَّهُ » . فنبذن اضاليلهنّ بين يديهِ وأغلبهنّ انخرطن في سلك راهباتهِ

وفي تلك السنة اتى القاصد ارنول ومعهُ زُهاء عشرين راهبًا فانضمّوا الى الجماعة الرُسليّة تحت قيادة السيّد ديبكو . وهذهِ النجدة شدّدت عزائم الكاثوليك وزادتهم غيرةً ونشاطًا . وعلقت كنيسة لانكدوك (Languedoc) تنتعش بقوّة جديدة . وتحسّنت حالة الاقليروس ونالوا حظوة في عيون الناس . فانّ المطران فُلك محا شكوكَ سالفهِ بنقاوة سيرتهِ وغيرتهِ حتى انّهُ اصبح قدوةً لرفاقهِ الاساقفة الذين كانت قد خمدت في قلوبهم نار المحبّة الالهيّة . امّا عبد الاحد ورفاقهُ فكانوا يجتذبون بفقرهم وتواضعهم واقوالهم الكهنة والمطارين . واخبر الاب تِيَرِي دابُلدا (Thierry d'Apolda) انّهُ جاء يومًا اسقفُ الابرشيّة بأبّهة عظيمة ليحضر مُجادلة عموميّة . فلمّا رآهُ صنديدُ المسيح اعني الاخ عبد الاحد قال لهُ : « ايّها السيّد الجليل والاب الفاضل « انّهُ لا يليق بنا ان نتقدّم الى محاربة بني الكبرياء بهذهِ الأُبّهة . « فانّنا لا نستطيع الظفر باعداء الحق الاّ بالتواضع والصبر والتقوى « وامثال الفضائل لا بالعظمة الزاهية والمجد العالمي الفاني . فلنتسلّح بدرع « الصلوة ولنحمل ترس التواضع ولنتقدّم حفاةً تجاه جلياد المتكبّر » . فأذعن الاسقف الى كلامهِ ونزع هو ومن معهُ احذيتهم وساروا حافين على مثال مار عبد الاحد واذ لم يكونوا يدرون بالطريق المؤدّية الى المثاب

المعيّن اخذوا دليلًا قرويًّا يهديهم اليهِ · فهذا اظهر نفسهُ باقوالهِ اللطيفة كاثوليكيًّا مع كونهِ هرطوقيًّا قُحًّا · وعوضًا عن ان يذهب بهم الى المحلّ المطاوب بالمسلك الاقصر اخذهم الى غابة قد غشّتها الأدغال الشائكة · فطال بهم المسير ودخلت الاشواك في ارجلهم وضرّجتها بالدم · فهتف عبد الاحد بكلّ صبرٍ وفرح مشجّعًا رفقتهُ حاثًّا ايّاهم على أسداء الشكر للهِ تعالى قائلًا : « لنثِق يا اعزّتي فانّ غابتنا ستكون باهرةً لانّ الرب سمح لنا ان نرحض خطايانا بدمنا » · فخرقت هذهِ الاقوال قلبَ الدليل واخذهُ الاندهاش من صبرهم واحتمالهم فرمى بنفسهِ عند رجلَي عبد الاحد واقرّ بخبثهِ وجحد الهرطقة · ثمّ بلغوا المكان المعيّن فأفحموا الهراطقة بالدلائل الناطقة والشواهد الصادقة فكسروهم كسرةً عظيمة كما قال القدّيس في الطريق · وبغلبتهم هذهِ انضمَّ عددٌ وافرٌ من النفوس الى حضن الكنيسة المقدّسة

فقام المومنون على قدم الفرح والسرور واستغشت وجوه الهراطقة بنقاب الحزن والعار لاسيّما عند مشاهدتهم سموّ فضائل هولاء الفعلة الانجيليّين اذ انّ الجميع كانوا يشهدون بقداستهم حتى الهراطقة انفسهم · وكان الرب يحامي عنهم ويعضدهم بالكرامات كلّما مسّت الحاجة · من ذلك انّ الهراطقة كانوا يرذلون القدّيس يوحنا المعمدان ويعتدّونهُ روحًا شرّيرًا · واذ كان الكاثوليك يحتفلون يومًا بعيدهِ رأى الاخ عبد الاحد فعلةً يحصدون في نفس نهار العيد فتأجّجت نار غيرتهِ فقصدهم ونبّههم بلطيف الكلام على سوء صنيعهم ففار فائرهم غضبًا

وحاول احدهم ضربهُ . فللوقت تلوّثت جميعُ حزمهم بالدم وشرع المعتدي يصرخ ويصيح ظانًّا انّهُ جرح . ولكن لم يُجرح منهم احد . واشتهرت هذهِ الاعجوبة في تلك الاقطار وصارت سببًا لان ينبذ كثيرون اضاليلهم ويعتنقوا الحق . ومنذ ذلك الحين دُعي ذلك الحقل حقل السنبل والمعجزة معجزة السنبل . وجرت هذهِ الحادثة العجيبة بالقرب من مدينة مونرثال وأُقيم في حقل السنبل صليبٌ تذكارًا لها . ونسب بعض المؤرّخين هذهِ الآية الى رفقاء عبد الاحد لكنّ بطرس المنتمي الى فوسرناي (P. de Vaux Cernay) كاتب تاريخ الالبيجيّين يشهد أنّ خالهُ نسب هذهِ الاعجوبة الى عبد الاحد وكان خالهُ أحدَ رفقاء القدّيس

امّا السيّد دييكو فاذ شاهد نجاح رفقائهِ همّ بالاياب الى ابرشيّتهِ . فقلّد صديقهُ عبد الاحد رئاسة الكهنة الذين كانوا معهُ راجيًا العود اليهم بعد تدبير امور رعيّتهِ وجَمع الصدقات لدير برويّ . فسافر في مدار سنة ١٢٠٧ واذ بلغ باميَر (Pamiers) لاقى اخصّ اصدقائهِ من كهنةٍ ومطارين كانوا قد وافوا من الاماكن المجاورة ليودّعوهُ . وكان سمّ الهرطقة قد سرى في تلك المدينة وامتدّ بل قتل نفوس اغلب سكّانها . فارتجّ الاهالي عند سماعهم قدوم السيّد دييكو مُؤَمّلين الغلبة عليهِ ببراهينهم الواهية . فدعوهُ هو ومن معهُ الى مُفاوضةٍ مشتهرة . فلبّى دَعوتهم وارتضى بإقامة معاضد الهراطقة بعينهِ رئيسًا على المفاوضة وجعل احد الخاصّة حَكَمًا يعتمدون على حكمهِ في مجادلاتهم . وكان هذا ايضًا هرطوقيًا متمسّكًا بضلال شيعتهِ . فكاد الهراطقة

يطيرون فرحاً وتاكّدوا انّ الغلبة تكون لهم وصاروا يهنّئون بعضهم بعضاً على كسرهم شوكةَ الكاثوليك بشخص رئيسهم السيّد ديبكو. فطفق هذا المطران يعرضُ الحقائقَ الدينيّة ويشرحها شرحاً مُتقناً ويثبتها بأحسن النطق والحكمة فأبكم الهراطقةَ بالحجج الساطعة والبيّنات النيّرة حتى لانَ قلبُ الحكَم فجحد ضلالهُ. وتاثر احدُ الافاضل فلم يكتفِ بنبذ الهرطقة بل دخل الرهبنة وأنشأَ جمعيّةً دأبُها مُحاربة الهراطقة. ثمّ انضمّت تلك الجمعيّة الى الرهبنة التي أسّسها بعد ذلك الاخ عبد الاحد. ومثّلُ هذين الرجلين حرّك المدينة جمعاء فرجع الى حضن الكنيسة عددٌ وافرٌ من الهراطقة

ثمّ غادر السيّدُ ديبكو بامير مُتوَجّاً بأكِلّة الغلبة والثواب واجتاز الجبال وهو راجلٌ. وبعد مشقّةٍ عظيمة بلغ ابرشيّتهُ ودبرّها وجمع صدقاتٍ وافرة. ثمّ قام يستعدّ للرجوع الى جوقة الفعلة الانجيليّين الذين كان قد تركهم عند الهراطقة. ولكن الربّ دعاهُ الى الاجتماع بطغمات الملائكة والرُّسل الأَطهار فانتقلت نفسهُ الى الوطن السماويّ وقُبر جسدهُ في بيعتهِ في شمالي المذبح الكبير. وأجرى الرب الكراماتِ على ضريحهِ. وتخلّدَ ذكرهُ في قلوب اولاد عبد الاحد فانّهم يرون فيهِ صديق ابيهم والمبشّر الذي اعدّ الطرق لدعوتهِ بكلّ أمانةٍ وتدقّقٍ واجتهاد

الفصل الثامن

في تفرّق الفعلة الانجيليّين وما جرى لعبد الاحد في اثناء ذلك

ان خبر وفاة السيّد دييكو انقضَّ كصاعقةٍ هائلةٍ على الفعلة الانجيليّين فضعضع قوّتهم وخيَّب آمالهم وأذاقهم مُرَّ النوازل والمحن وفرَّق شملهم. فالقاصد رأول ذهب فريسة الاتعاب. والقاصد أرنول تفرّغ لتدبير رهبنتهِ. والقاصد بطرس قام عليهِ الهراطقةُ يتهدّدونهُ متوقّعين فرصةً تُمكّنهم من قطع خيط حياتهِ فانّهم لدى معاينتهم نجاحَ الكثلكة اخذتهم الحميّةُ واستشاطوا غيظًا جهنّميًّا وشدُّوا على الكاثوليك. واذ لم يقدروا ان يخدعوا الناس كالاوّل ويحاموا عن مُعتقدهم بالوعظ وبظواهر الفضيلة صاروا يدافعون عنهُ بسيف الظلم والجور مُعتصمين بريُمند السادس امير تولوزا (Raymond VI comte de Toulouse) عدوّ الكاثوليك الالدّ. فهذا كان يرتكب أعظم الفواحش واشنع المنكرات ويجدّف على اسم الله القدّوس ويستهزئ بالاحتفالات الكنَسيّة فضربهُ القاصد بطرس بالحرم. فطار طائرُ الأمير غضبًا وتوعّدهُ بالقتل إن لم يرفع عنهُ الحرم. ولكنَّ هذا الوعيد لم يكن ليثني القاصد الشجيع عن أداء واجباتهِ بل انّهُ وطّد عزيمتهُ وبشّرهُ بالخير على ان القاصد المذكور كان قد اطلق اشواق نفسهِ تسعى وراء الاستشهاد وتحوم حول الموت من اجل تلك البلاد متاكّدًا انّها لا تزهو وتزهر الاّ بعد ان تُسقى تربتُها بدم شهيد. ولذا فكان لا يزال يطلب

من الله ان يُلطِفهُ بنعمة الاستشهاد العظيمة . فلمّا رأى الامير شجاعة القاصد واشتداد عزيمتهِ اجلس علناً الهراطقة في ظلّ حمايتهِ وجار على الكاثوليك . فانتهر جهراً الاساقفة الذين كانوا يقاومونهُ وأذن بسلب الكنائس والأديرة وجعلها قلاعاً وحصوناً يستخدمها لظلمهِ وجورهِ . فلمّا عاين رفاق عبد الاحد تبدّدَ روسائهم وحنق الهراطقة وتجبّرهم خارت قواهم وانحسم حبلُ رجائهم فعاد بعضهم الى اديرتهم والآخرون الى ابرشيّاتهم وألقوا أحمال الرسالة على عاتق كاهنٍ شابٍّ تبعهُ كاهنان او ثلاثة ولم يكن ذلك الكاهن الآ عبد الاحد السامي القداسة المتسلّح بذراع العليّ وقوّتهِ . وكان يعرف حق المعرفة ان ما لا يُستطاع عند البشر يُستطاع عند الله فشمّر عن ساعد الهمّة وصار يفلح وحدهُ في ذلك الحقل الواسع حتى ارسل لهُ ربّ الحصاد فعلة . فنال عبد الاحد بغيتهُ بأسرع وقتٍ ورغماً عن الصعوبات العظيمة التي صادمتهُ . فسبحان الرب العجيب في قدّيسيهِ والطوبى لمار عبد الاحد فانّهُ كان حينئذٍ قدّيساً كاملاً ففاق بذلك مَن سواهُ

ومّما يستحق الاسف هو ان معاصري قدّيسنا الجليل ذكروا بلا نظامٍ ولا ترتيب الاعمال الخطيرة والكرامات الباهرة التي اجراها الرب على يديهِ في تلك الرسالة . فعوضاً عن ان يخبرونا عنها بالتفصيل تبعوا عواطف قلوبهم فصاروا يعظّمون ذكرَ مار عبد لاحد ويثنون عليهِ لِما أَبدى من الفضائل البطليّة كالمحبّة والتواضع والغيرة . وفي الحقيقة ان من يقرأ ما سطّروهُ بخصوص ذلك يتحقّق انهم شُغفوا بافضال القدّيس

وفضائله رغمًا عن انهم مفطورون على صرامة الحكم ودقة الفهم والاصابة في الانتقاد . ولقد كان بودّي ان اشرح ما كتبوا ولكن انّى لي فصاحتهم فانثر دُرَرهم . انّى لي قلب يحاكي قلوبهم هم الكتبة الافاضل الذين عظّمت الكنيسةُ أَغلبهم اذ سطعت شمسُ قداستهم في سمائها فسُجّلت اسماؤهم في دفتر القدّيسين . ومن حيث انّ العلم غير حقيق ان يصف والقلب غير خليق ان يمدح فالاجدر بي ان اعتصم بالسكوت واترك اعمال القدّيس تتكلم وحدها لانّ لها قوّةً حيّة تنفذ القلوب وتؤثّر فيها ايّ تاثير . على انهُ لا بدَّ لي من اقتطاف بعضها كما تُقتطف الزهور الذكيّة فاقدّمها للقارئ اللبيب ليستنشقَ ما فيها من عطر النعمة السماويّة وطيب الفضائل الملائكيّة فاقول :

بعد انتقال السيّد ديبكو الى رحمة الله وتبدّد شمل الفعلة الانجليّين بقي الاخ عبد الاحد في حومة القتال مع كاهنين او ثلاثة لم يتقيّدوا بنذر . فلم يفتأ يقاوم الهراطقة بالوعظ والانذار ويشجب التراخي والرذائل باقوالهِ الحارّة وامثالهِ الصالحة . وكان يتهيّأ لعظاتهِ بالسهر والتقشّف والصلوة وكان يتبصّر في عظم القصاص الذي ينزلهُ الله بالخاطئ مهما كانت خطيّتهُ طفيفة فكانت ترتعد فرائصهُ خوفًا من ان تكون خطاياهُ مانعًا لنيل النعمة للخطاة . ولهذا فكلّما دخل قريةً او مدينةً ليعظ فيها جثا على الارض طالبًا من الله بدموعٍ سخينة ان لا ينظر الى زلاّتهِ كي لا يكون سبب هلاك سكّانها وهذهِ صلاتهُ :

« ربي استحلفك بجودتك الالهيّة ان تصرف نظرك عن خطاياي وعند

« وصولي هذا المحلّ لا تسخط وتضرب بغضبك هذا الشعب ولا تعاقبهُ
« ولا تهلكهُ بسبب آثامي » . وكانت غيرتهُ على خلاص النفوس تنمو
يوماً فيوماً في اشغالهِ الرسليّة الشاقّة . فذات يوم كان يحرّض قرويّاً ان
ينبذ ضلالهُ فاحتجّ انّهُ فقير صاحب عيال وانّ الهراطقة يقومون بكفافهِ
والذلك لا يمكنهُ تركهم . فتحرّك قلب القدّيس على هذهِ الغنمة الضالّة
واذ لم يكن لهُ ما يعطيهِ لسدّ لوازمهِ قصد ان يبيع نفسهُ ويتجرّع
غصص الرقّ والعبوديّة لينشل هذهِ النفس من اسر الشيطان وتباعهِ .
ولكنّ الرب تدارك الأَمر اذ ارسل لهُ ما لزم لِسدّ فاقة المسكين .
وكان ايضاً بالقرب من مدينة تولوزا نساء رفيعات الشان سليمات السريرة
جَذبهنّ كلامُ الهراطقة الكاذب وظواهر زهدهم الخدّاعة فعدلن
عن طريق الحقّ وانخرطن في سلك شيعتهم . فعلم بذلك عبد الاحد
فذهب في بدء الصوم الكبير عندهنّ هو ورفيقٌ لهُ فاستضافاهنّ بنيّة ان
يُدخلاهنّ في حظيرة الخراف . ولم يقيا معهنّ جدالاً لكنّهما في مدّة
الصوم كلّهِ لم ياكلا الاّ خبزًا ولم يشربا الاّ ماءً . واذ أَردن ان يُهيّئنَ
لهما مضاجعَ لم يرتضيا بل طلبا فقط لوحَين رقدا عليهما مدّة اقامتهما
هناك . وكانا يقضيان قسماً عظيماً من الليل في الصلوة والعبادة مكفّرَين
عمّاً ارتكبنهُ بضلالهنّ وطالبَين لهنّ نعمة الارتداد الى الايمان المستقيم .
واستمرّا على حالتهما هذهِ حتى عيد القيامة . فعمل هذا المشهد في
قلوب النّساء وصار لهنّ شعاعًا نفذ عقولهنّ وأَنارها فانضممن
الى حضن الكنيسة . وهكذا فحيثما كان الكلام قاصرًا عن تبديد

الظلمة كانت اعمالهُ تضيء للناس فيتبينون الصراط المستقيم

وكان كثيرًا ما يحثّ رفاقهُ على ان يحملوا باقوالهم وافعالهم الناس على الفضيلة ويتناءَوا حتى عن ظلّ ما من شانهِ ان يشكّك القريب. ولذا فكلّما قصد بيتًا لياوي اليهِ أروى اوّلاً غليلهُ في ساقية خوفًا من ان يحملهُ عطشهُ على الإفراط في الشرب فيستزلّ القريب ويضحي سببًا ليُقرِّف الهراطقة رُسلَ الكنيسة. وكان يفعل ذلك خلوًّا من كلّ غرض شخصيّ على انّ تجرّدهُ من حبّ الذات دفعهُ ان يابى اسقفيّات بِزير (Beziers) وكونسرَن (Conserans) وكومنج (Comminges) واذ ألحّوا عليهِ بذلك اجاب انّهُ مستعدّ ان يهرب ليلًا اذا الجأَهُ الامرُ كي يتملّص من هذهِ المناصب العالية. وذلك لانّهُ لم يكن يهوى الّا الخيرات الغير المنظورة ولم تنحصر اشواقهُ الّا في ايقاد نبراس العلم في عقول الجهلة واشراق شمس الحقّ على أذهان الهراطقة وسحق ألباب الخطاة بندامةٍ نصوح

وكلّلَ الرب فضائلهُ الجليلة بموهبة العجائب. فمن عجيب ما جاء عنهُ انّهُ ركب يومًا قاربًا وجاز النهر فطالبهُ الملّاح بالاجرة فاجابهُ القدّيس قائلًا: « انّي تلميذٌ للمسيح لا احمل ذهبًا ولا فضّةً فالربّ عزّ اسمهُ يدفع لك ثمن عبوري بمنحهِ لك الملكوت السماويّ ». فلم يعتبر الملّاح هذا الثمن ولم يرضَ بهذا الوعد فتعلّق بردائهِ واندفع يصرخُ ويقول: « اترك لي رداءَك او أرِح عليّ حقّي ». فرفع القدّيس نظرهُ الى العلاء وصلّى قليلًا. ثمّ اطرقهُ الى الارض واذا بدرهمٍ مُلقى عند

قدميهِ . فأومأ الى صاحب القارب ان ياخذهُ قائلًا لهُ : « دونك ما « تطلب يا اخي فدعني أنطلق بسلام » . ومرّةً اخرى كان يقطع النهر المدعوَ أريج (Ariège) وهو حاملٌ كتبهُ فاذ رفع ثيابهُ لئلاَّ تبتلَّ سقطت الكتب في وسط النهر وغاصت فيهِ . فقصَّ الواقعة على امراةٍ شريفة تقيّة فحزنت جدًّا لفقد الكتب بناء على انّها ضروريّةٌ لعظاتهِ ومجادلاتهِ . امّا هو فسلاّها قائلًا : « لا تاسفي لانّ الرب لا يسمح بما « يناصب ارادتنا الآ ويأول ذلك الى خيرنا وصلاحنا » . وحدث بعد ثلاثة ايام انّ صيّادًا ألقى شبكتهُ في ذلك النهر فعلقت بالكتب فظنّها سمكة كبيرة فسحبها فرأى كُتبًا يابسةً كانّها محفوظة في صندوق مع انّها لم تكن مغشّاة بنحاس او بغير ذلك ممّا يقيها الابتلال . فاطّلعت الامراة المذكورة على الامر فاخذت الكتب وردّتها بمزيد الفرح لعبد الاحد

وقلّدهُ الرب قوّةً ليحكم على العناصر فلا تضرّهُ : فذات يوم كان راحلًا من مدينة كركسون الى مونرئال فعثر باناس يجهلون التعاليم الكاثوليكيّة فأخذ يبذر في ارض قلوبهم بذر التعاليم الآلهيّة ويرشدهم الى السلوك في سبيل الفضيلة . ففاجأتهم عاصفةٌ شديدة وصار المطر يقع مدرارًا فهمّوا بالذهاب الى محلّ يلتجئون فيهِ فأوقفهم القدّيس ورسم اشارة الصليب واذا بالعاصفة اضمحلّت وانقطع المطر . وشُيّد في ذلك الموضع معبدٌ اكرامًا للقدّيس . وهذهِ الآية دامت حتى بعد وفاة القدّيس بزمنٍ مديد . فقد كتب الاب برسين (Percin) في الجيل السابع عشر انّ المطر والبرد لا يقربان قطعًا ذلك الموضع واذا ما نزلا وقعا في مكان

يبعد عنه قدر خمس او ست خطوات . وكلما رعدت الرعود ينطلق سكان هذهِ النواحي ويجثون في ذلك المعبد ويبتهلون الى القدّيس حتى نهاية العاصف . ومرّةً اخرى كان يسافر مع بعض رفاقهِ فباغتتهم امطار غزيرة وصارت تجري على رؤوسهم كالسيول فابتلّت ثيابهم ايّ ابتلال . فلمّا وصلوا مَبيتَهم اخذ رفاقهُ بتجفيف ثيابهم واما هو فدخل الكنيسة والبستهُ مبتلّة ولكنّ قلبهُ كان متاججاً بنار الروح القدس . وعند الصباح عاد الى رفاقهِ فألفاهم وثيابهم ندية . واما ثيابهُ فكانت في كمال اليبوسة كانّها لم تتندَّ اصلاً

واذ لم يكن للقدّيس محلٌّ خصوصيّ يستبيت فيهِ تعوَّد قضاء الليل في الكنيسة . والارض كانت فراشهُ الاعتياديّ . وكثيرًا ما لم يتيسّر لهُ بلوغ الكنيسة فرقد على قارعة الطريق او في البراري . وحدث لهُ مرّةً انّهُ بعد مفاوضةٍ طالت حتى المساء قصد كنيسةً بصحبة اخٍ من رهبنة مار بندكتس فوجدا الابواب مغلقة . فاخذا يصلّيان وفي الحال رأيا انفسهما داخلها فباتا ليلتهما متهجّدَين ومسبّحَين الله . وكان يومًا مسافرًا مع راهبٍ يجهل لسانهُ فصلّى الى الرب ليفهم الواحد كلام رفيقهِ فلم يرذل اللهُ طلبتهُ بل منّ عليهِ بموهبة الألسن فطفقا كلاهما يخوضان سويّةً بحر الحديث مدّة ثلاثة ايّام . واثبت المورّخون انّهُ شفى مرضى مُعترين باوجاع مختلفة ونجّى انسانًا قد تخبَّطهُ الشيطان . وأُحضر اليهِ آخر تُعذّبهُ شياطين كثيرة فلبس القدّيس بطرشيلاً واحاط بهِ رقبة المعذَّب وأَخرج منهُ الارواح النجسة وامرها ان لا تعود تعذّبهُ

ودعاهُ يوماً الى الغداء رئيس كنيسة مار منصور فحان الميقات ولم يأتِ فارسل الرئيس احد الاكليريكيين في طلبهِ . فذهب هذا ورآهُ قبالة المذبح مرتفعاً عن الارضِ قدر نصف ذراع . فعاد واخبر الرئيس بما شاهدهُ . فاتى الرئيس لتحقيق الامر فعاين الاعجوبة كما وصفها الاكليريكيّ . فعمل هذا المنظر في قلبهِ حتى انهُ بعد قليلٍ من الزمن لحق بعبد الاحد وصار يفلح معهُ في كرم الرب . وفي هذهِ الكنيسة عينها انتعش الصليب وصار يكلّمهُ ويؤيّدهُ ويشدّد عزائمهُ ليداوم على اشغالهِ الرسليّة رغماً عن المحن التي لا بدّ من ان يتجرّع غصصها . على انّ غيرتهُ ومواعظهُ والعجائب التي كان اللهُ يجريها على يدهِ لم تزدهُ شرفاً ورفعةً لدى الهراطقة بل كانت تسبّب لهُ الشتائم والمذلّات . امّا هو فكان يتحمّلها فَرِحاً كانّهُ يقتبل جواهر نفيسةً بل كان يحتسب نفسهُ سعيداً لمكابدتهِ الإهانات على حبّ معلّمهِ الالهي حتى انهُ صار يفضّل السكنى في المدينةِ التي يلقى فيها الذلّ والاهانة . وسُئِل مرّةً عن الداعي الذي لاجلهِ يفضّل مدينة كركسون على مدينة تولوزا فاجاب قائلًا: « انّ في تولوزا كثيرًا من الناس يُكرمونني وامّا « في كركسون فالجميع يضطهدونني ويجورون عليّ » . والحق يقال انّ ابليس اللعين ما زال يحرّك تباعهُ الهراطقة ليوسعوهُ سبّاً ويطعنوا بهِ اذ يرونهُ فقيرًا بسيطًا صبورًا . فاقبلوا عليهِ يهينونهُ ويظلمونهُ فمنهم من كان يعلّق تبناً في ردائهِ مستهزئاً بهِ ومنهم من يرميهِ بالوحل ومنهم من يكمن لهُ ليخبطهُ ويميتهُ ضربًا . وهذهِ الاهانات والضيقات

والاضطهادات قوّت عزائمهُ فصار يخوض الاخطار والمنايا لا يخشى شيئاً . واذ توعدهُ الهراطقة بالموت اجابهم قائلًا : « لستُ اهلًا للاستشهاد « فاني لم استحقّ بعد تلك الميتة السعيدة » . وذهب يوماً من قرية بروي قاصدًا مدينة فانجو فعرف انّ اعداء الايمان كامنون لهُ في الطريق ليعدموهُ الحياة فبادر الى مَكْمَنِهم بفرح وسرور وهو يرتّل ويسبّح الله . فأخذ العجبُ مضطهديهِ كلّ ماخذ فرموا اسلحتهم على الارض ثمّ سألوهُ قائلين : « اما تخشى الموت . فماذا كنتَ تصنع لو قبضنا عليك » . فاجابهم وهو يتهلّل فرحاً : « لكنتُ التمس منكم ان لا تقتلوني « بضربة واحدة بل ان تقطّعوني اربًا اربًا وتجعلوا اعضائي نصب عينيّ . « ثمّ تفقأُوا عينيّ وتتركوني غائصاً في بحر دمي او تقتلوني مثلما تشاؤون » فازدادوا تعجّباً واندهالاً من كلامهِ وكفّوا ولم يعودوا يكمنون لهُ . ونُصب صليبٌ في ذلك المكان تذكارًا للواقع . وسُمّي الطريق طريق القاتل



الفصل التاسع

في الحرب الدينيّة والورديّة

لمّا رأى أمير تولوزا انّ الوعد والوعيد ما كانا ليرخيا عزائم القاصد بطرس الكستلناوي كي يرفع عنهُ الحرم اظهر امارات الندامة ودعاهُ اليهِ طالبًا ان ينال منهُ الحلّ . فبادر اليهِ القاصد الفاضل . امّا الأمير فعوضًا عن ان يؤدّي توبةً نصوحًا لاقتبال الحلّة اجهر انّ اربهُ هو ان يُجبر القاصد على منحهِ الحلّة والاّ فيتوعّدهُ علانيةً بالقتل . ولكنّ القاصد ما كان ليخالف ضميرهُ لرُعبٍ وترعيب . فاذ رأى عدم استعداد الامير للتوبة قصد الاياب الى مأواهُ . ولكن في اليوم الثاني من سفرهِ لاقاهُ رجلان طعنهُ احدهما بحربتهِ فجرحهُ جرحًا بليغًا . فوجّهَ حينئذٍ القاصد الحاظهُ الى القاتل وقال لهُ : « سامحك الله وانا « ايضًا اسامحك » . وأعاد ذلك عدّة مرات ثمّ التفت الى مَن كانوا معهُ وحرّضهم على الثبات على الوعظ والانذار ومقاومة الهراطقة . وبعد ذلك بزمنٍ قليل انتقل الى الخدر السماويّ وعلى هامتهِ يسطع اكليل الاستشهاد . وكان ذلك في اليوم الخامس عشر من كانون الثاني سنة ١٢٠٨

فصار لِقتلِ القاصد الجليل رنّةٌ عظيمة وهاج العالم الكاثوليكي وماج وناشب الامير ريمند حربًا عوانًا لم تخمد الاّ بعد ان الّمت بعبد الاحد الملمّات وتفارطتهُ الصعوبات . فانّهُ من جهة لم يشأ الارتحال عن تلك البلاد لانّها كانت مركز الهرطقات ومن جهةٍ أُخرى لم يُرد

الاشتراك في الحرب الدينيّة خوفاً من ان يعدل بذلك عن الفضائل الرُسليّة كالتواضع والوداعة . ولذا لم يذكرهُ مورخوهُ في سني الحرب الاّ وهو يصلّي ويتنبّأ ويصنع الآيات ويقاتل الهراطقة لا بسيف قلّدهُ اياهُ ملكٌ ارضي لكن بحُسام سلّحتهُ بهِ امّهُ القديرة مريم العذراء سلطانة السماء والارض

فالعجائب التي أجراها الربّ على يدي عبدهِ في تلك الحرب قد ذُكر بعضها في الفصل السابق وما تبقّى منها أستغني عنهُ بذكر اعجوبةٍ واحدةٍ فقط جرت في سنة ١٢١١ بحضور جمٍّ غفير من جيش الصليبيّين اذ كانوا يحاصرون تولوزا . وذلك انّ بعض السيّاح الانكليزيّين مرّوا بالقرب من هذهِ المدينة ليحجّوا الى قبر مار يعقوب الرسول في اسبانيا . وفيما هم يجوزون نهر غارون (La Garonne) اذا بالقارب انقلب بهم وكان عددُ الراكبين اربعين رجلاً فغاصوا في النهر وكادوا يغرقون . فأخذ العسكر يعجّون ويستصرخون ونشأ عن ذلك ضوضاء عظيمة . وكان عبد الاحد وقتئذٍ يصلّي في كنيسةٍ في جوار النهر . فاذ سمع الصراخات ودرى بالحادث اقبل الى شاطئ النهر وارتمى على الارض وصار يصلّي باسطاً يديهِ بشكل صليب متضرّعاً الى الله لخلاص السيّاح الغارقين . فلما انتهى من صلاتهِ انتصب قائماً والتفت الى النهر وصرخ بصوت عالٍ وقال : « آمركم باسم يسوع المسيح « ان تاتوا جميعكم الى الشاطئ » . وفي الحال طفا الغرقى على وجه الماء وتعلّقوا بحراب طويلة مدّها لهم العسكر ووصلوا الشاطئ سالمين كلّهم

وزاد الربّ على موهبة العجائب التي وهبها لمار عبد الاحد روح النبوّة . من ذلك انهُ كان قد أُمسِك بعض الهراطقة في الحرب فبسط لهم عبد الاحد عقائد الايمان المسيحيّ ودحض هرطقتهم . فلم يريدوا ترك اضاليلهم فحُكم عليهم بالإحراق . فنظر حينئذٍ القدّيس الى احدهم وقال للضبّاط : « استبقوا هذا وإيّاكم ثمّ ايّاكم ان تُحرقوهُ » . ثمّ التفت الى الهرطوقيّ ونطق بهذهِ الكلمات الحلوة وقال : « إني أعلم يا « ابني امرًا وهو انّك بعد زمان طويل تُمسي رجلًا صالحًا وقديسًا » . ويا لهُ من امرٍ عجيب فانّ النعمة الالهيّة مسّت قلب الهرطوقيّ بعد ان استمرّ عشرين سنة تائهًا في بيداء الضلال فانتظم في سلك الاخوة الواعظين وعاش عيشةً صالحة ومات تقيًّا امينًا

وفي الصوم الكبير سأل عبدَ الاحد راهبٌ من رهبنة مار بندكتس عن انتهاء الحرب قائلًا لهُ : « ايها المعلّم حتى متى تنتهي « هذهِ الشرور » . امّا عبد الاحد فاعتصم بالسكوت فالحّ عليهِ الراهب في الجواب لانهُ كان يعلم انّ الله تعالى يوحي اليهِ اشياء كثيرة . فاجاب القدّيس الى طلبهِ وقال لهُ : « نعم انّ هذهِ الشرور ستنتهي ولكن « بعد زمان فانّ دم كثيرين سيهراق وسيُقتل ملكٌ في حرب هيجاء » . وكان حاضرًا حينئذٍ الاخ اسطيفان احد رفاق عبد الاحد . فالذين طرقت آذانهم هذهِ النبوة خافوا من ان ملك فرنسا الذي نذر ان يحارب الهراطقة يكون المقضيّ عليهِ بذلك لكنّ القدّيس سكّن روعهم وقال : « لا تخافوا شيئًا على ملك فرنسا فانّ الذي سيُقتل هو ملك آخر يسقط

«في هذهِ الحرب عينها» . وبعد سنةٍ قُتل ملك أَرَغون (Aragon) في مدينة موري (Muret) . وهكذا صحّت نبوتهُ . ويزيد الاب تيَري قائلًا : « لا عجبَ في انَّ الله منح روح النبوّة لهذا القدّيس فانّهُ لم « يتناول في ذلك الصوم سوى خبز وماء وفي عيد القيامة ظهر أَزهى « واقوى من ذي قُبُل »

وفضلًا عمّا كان عليهِ عبد الاحد من غزارة العلم وسموّ القداسة وتشريف الله ايّاهُ باجراء الكرامات والآيات الباهرة كانت قلوب الهراطقة بهذهِ الحرب المستطيلة لا تزال تقسو اكثر فاكثر فصار جلّ بغيتهم الانتقام والقتل . وهذهِ الحرب كانت تدهور في لجة الهلاك نفوسًا لا يُحصى عددُها اذ انّ الهراطقة رذلوا الايمان وخلاص نفوسهم . وهذا ما كان يمزّق قلب عبد الاحد حزنًا واكتئابًا . فالتجأَ الى امّهِ العذراء وصار يستغيثُ بها ويلحّ عليها بالطلب لِتُطفئ جمر الحرب وتدخّل الهراطقة في حضن الكنيسة . فضاق صدرُهُ فقصد ذات مرّةٍ معبدًا مخصّصًا بالعذراء القدّيسة وصار يشكو لها حالهُ متضرّعًا اليها بغاية الحرارة ان تُطلعهُ على الوسائط التي تمكّنهُ من احياء الايمان في القلوب المائتة . فظهرت لهُ الامُّ الرأوم القدّيسة وشجّعتهُ واشارت عليهِ ان لا يعود يُقيم جدالاً مع الهراطقة وان لا يفنّد تعاليمهم بحرارة كما كان يفعل واوعزت اليهِ ان يكتفي ببسط الحقائق الدينيّة امام الشعب ويقرنها بالصلوة معهم من وقتٍ الى وقتٍ فيسكب اذ ذاك ابنها الالهيّ نعمهُ الغزيرة على تلك النفوس المسكينة . ثمّ استتمّت كلامها قائلةً :

« كما انّ فداء البشر ابتدأ بالسلام الملاكي فبهذا السلام عينه يبدأ « الهراطقة بالاهتداء . فأذهب اذًا وأنذر بالورديّة فهي تكلّل اتعابك « بالنجاح فيرجع الهراطقة افواجًا افواجًا الى الايمان المقدّس » . فرأى عبد الاحد انّ السلامَ الملاكي يقتضي ايجازهُ التكرار مرارًا عديدة فجعل ان تُتلى هذهِ الصلوة السنيّة مائة وخمسين مرّةً على عدد المزامير التي ترتّلها الكنيسة في فرضها الآلهيّ اكرامًا لله عزّ وجل . واذ كان التكرار من شانهِ ان يولي الملَلَ وطياشة العقل رأى عبد الاحد ان يقسّم التحيّات اللفظيّة الى خمسة عشر بابًا مُنتَظِمة خصّص بكلّ باب منها سرًّا من اسرار الفداء . وكل خمسة اسرار جعلها جزءًا يرمز الى قسمٍ من حياة يسوع ومريم . وخصّص القسم الاوّل بأفراحها والثاني باحزانها والثالث بانتصاراتها . فصارت الورديّة تحوي كل ما في العهدِ القديم والجديد . فالتأمّل فيها يحفظ الانسان من عدوان الاضاليل . والهذيذ بها يزيل عنهُ قساوة القلب . وتلاوتها تيسّر لكلّ احد الصلوة . فالعالِم يَجدُ فيها اسنى التعاليم واغمضها . والجاهل احسن الافكار وابسطها . ولم يضع لها عبدُ الاحد حدًّا فللعابد ان يكرّرها حسب تقواهُ فيقدّمها لِلمَلكتهِ كما يُقدّم الارواح السماويّون تسبحة الغلبة لملكهم العليّ اذ يصرخون ويكرّرون بلا ملَل ولا فتور قائلين : « قدّوس قدّوس قدّوس » . ولذا فكلّما كرّر اولاد مريم هذهِ التحيّة نثروا على هامتها زهور المدح والتسبيح وأفعموا قلبها حبورًا . واضاف القدّيس الى كلّ سرٍّ منها ابانا الذي والمجد للآب لتكون كاملةً في معناها ولفظها وشرفها وليتذكّر

المومنون انّ من يجلّ مريم امّ الله يجلّ ابنها الالهيّ بل انّ مريم لا تخصّ ذاتها بهذا المدح بل ترفعهُ على يديها مُقدِّمة اياهُ الى الله عوض اولادها المفتدين بالدم الالهيّ . فعندما يطرق هذا السلام سمعَ العذراء يتهلّل قلبها فرحًا وتتحرّك احشاؤها رافةً لانها بهذا السلام تذكر ما اسبغ الله عليها من النعم السنيّة التي لم ينعم بها على احد غيرها لا في السماء ولا على الارض . فتتضرّع اذ ذاك هذهِ السيّدة القديرة من اجل من يحيّيها بهذا السلام السامي وتستمد لهُ النعم السماويّة وكلّ ما يأُول الى صالحهِ . فيا ما اشرف تلك التحيات الموجّهة الى امّ الله ويا ما اقدر ذلك السلام الحاوي قوّة تنفذ حتى قلب الله بواسطة ابنتهِ وامّهِ وعروستهِ

ولمّا ان رتّب عبد الاحد هذهِ العبادة واخذ يجري بكلّ ضبط وتدقيق اوامر العذراء وينذر بالورديّة ويفسّر اسرارها تقاطرت الناس اليهِ اجواقًا حتى انهُ أُلجئَ من اجل ازدحام الجمع ان يعظ في خارج الكنيسة . فانصبّ الناس على تلاوة الورديّة واتّقدت قلوبهم بحرارة التامّل في اسرارها والهذيذ في معانيها وما عتم الظلامُ أن انقشع برقعهُ عن عيون الهراطقة فاقرعوا الى الحق نابذين اضاليلهم . حتى انهُ بسنين قليلة اهتدى الى حضن الكنيسة ما ينيف على مائة الف هرطوقيّ . واضحت الورديّة ينبوعًا جديدًا أجرى الله منهُ على يدي عبد الاحد عجائب شتّى بل وبارك الربُّ على هذهِ العبادة وخلّد ذكرها وحسبُنا ان نذكر شيئًا ممّا كتبهُ الاب العلاّمة لكُردَير (Lacordaire) بخصوص ذلك اذ قال : « بارك اللهُ الربّ على مقصد عبد الاحد التقويّ وشمل

« باليمن مسعاهُ · فذاعت عبادة الورديّة بين الشعوب طرًّا وتمسّك بها
« الشعب المسيحيّ على ممرّ الاجيال بتدقيقٍ فائق · فتكاثرت اخويّاتها
« الى ما لا يحيط بهِ احصاء · وهيهات ان تصادف مسيحيًّا ليس بعيّنتهِ
« قسمٌ من الورديّة يُسمّى المسبحة » · وبهذا السيف الذي قلدتهُ اياهُ
مريم العذراء كسر شوكة اعداء الايمان وأرجعهم القهقرى وبهِ ايضًا سلّح
جنودًا ايّدوا تعليمهُ واقتفوا آثارهُ



الفصل العاشر

في تأسيس رهبنة الاخوة الواعظين

ذكرنا آنفًا انّ القدّيس عبد الاحد طوى في مدينة تولوز ليلةً فيها حادث احد الهراطقة وأقنعهُ وهداهُ الى طريق الحقّ وكان ذلك سنة ١٢٠٣ ففي تلك الليلة عينها عقد النيّة على انشاء رهبنةٍ دأْبها الوعظ والانذار . ولمّا توفي السيّد دييكو وتبدّد شمل رفاقهِ اخذ مار عبد الاحد يفكر في ذلك العزم ويلهج بهِ الليلَ والنهار . الاّ انّ الحرب التي شبّت وقتئذٍ بين الكاثوليك والهراطقة خيّبت آمالهُ وزادت الهراطقة تعصّباً في الضلالات والكاثوليك ارتباكاً في الدنيويّات . ولكن كلّ هذهِ الحروب والاهوال ما كانت لتُخيف عبد الاحد ولا تمادي الزمان ليُرخي عزائمهُ . بل كلّما المّ بهِ رزيّة زاد شجاعةً وبمقدار ما طال الزمان وذهبت اتعابهُ سدًى زاد هو ثقةً ورجاءً عالمًا انّ الحيوة الرسوليّة تاتي بأضعاف اذا ما سُقيت بعرق الاتعاب ودموع المشقّات . وانّ ربّ الحصاد اذا أبطأَ فلا ياتي لجمع الغلاّت الاّ وبصحبتهِ كثير من الفعلة الشجعان المنتخَبين . وجرى الامر طبق المرام وذلك انّهُ عندما اخذت نار الحرب بالخمود وكانت الجيوش الكاثوليكيّة تستولي على الهراطقة وتفتتح مدنهم بسيف قوّتها وبسالتها اجتنى مار عبد الاحد ثمرة اتعابهِ فصار يستعطف الهراطقة ويستميلهم اليهِ بتلاوة الورديّة وتفسير اسرارها . غير انّ هذهِ الغلبات لم تكن الاّ بشرى ظفرٍ مُخلّد

ففي سنة ١٢١٥ انطفأت نيران الحرب وخفقت بنود الكاثوليك وهذهِ السنة عينها اضحت لعبد الاحد سنة بركات وكرامات وفيها اظهر الربّ غايتهُ من خَلقهِ هذا القدّيس العظيم ومن تزيين عقلهِ بدرر العلوم وقلبهِ بجواهر الفضائل . فأدركَ الناسُ حينئذٍ الباعثَ الذي لاجلهِ بذل عبد الاحد ذلك الزمان الطويل في المواظبة على الدرس والصلوة والصوم والوعظ وفهموا الداعيَ الذي لاجلهِ كان قدّيسنا يسقي بعرق جبينهِ وبدموعهِ ارضاً عقيمة جدباء لا توازي اثمارها حراثتهُ البطليّة . فما كان ذلك الاّ ليتقوّى ويتشدّد ويصير حقيقاً بان ياتي باحسن اثمارهِ واينعها كالشجرة التي تسقيها مياهُ السماء فتتاصّل جذورُها في اعماق الارض وتنمو وتكبر وتُثمر ثماراً طيّبة غزيرة . فلما أدركَ مار عبد الاحد السنة الخامسة والاربعين من عمرهِ وقد سقاهُ الله مياهَ آلائهِ وحنّكتهُ التجارب والايّام وعصفت عليهِ ريح الضيقات والمشقّات وتأصل في العيشة الرهبانيّة في أسما وتقوّى في الاشغال الرسليّة حكمت الحكمة الازليّة ان ياتي باثمارهِ الحسنى المنتظرة ويخلّد نور تعليمهِ وأجيجَ قداستهِ . فدعتهُ بنوعٍ جليّ بيّنٍ لينشيء رهبنةً لم يكن لها نظيرٌ حتى ذلك الزمن . لانّهُ حتى الجيل الثالث عشر لم يكن مفروضاً على الراهب الاّ القيام بالصلوة والصوم ملازماً قلايتهُ ولم يُفرَض على الرسول الاّ الوعظ والانذار بين الشعوب والامم . أَجل انّهُ حتى ذلك الحين لم تقترح قريحةُ احدٍ وضعَ نير الراهب على عاتق الرسول وتقليد الراهب امور الرسول واشغالهُ الخارجيّة . فجاء قدّيسنا عبد الاحد الجليل واختبر بنفسهِ انّهُ حسنٌ ان

يجعلَ المرسَلُ الزهدَ رفيقهُ والناسكُ التعليمَ أليفهُ · ولذا عزم ان يجمع بين العيشة النسكيّة والرسليّة وينشئ رهبنةً تتألّف من أُناس هم رسلٌ بعلمهم وتعليمهم ونسّاكٌ بزهدهم وتقشّفهم فيكونون أشبهَ صورة بربّنا يسوع المسيح الراهب الاوّل والرسول الاعظم

وفي سنة ١٢١٥ انعم الرب على مار عبد الاحد برجلين فضيلين جديرين بان يكونا اسًّا لرهبنتهِ · وهما توما وبطرس سلاّني (Pierre Cellani) وكان الاوّل كريم الطباع فصيح اللسان كامل الخُلق والخَلق · وكان الآخر ايضًا رجلًا صالحًا وكريمًا ذا مالٍ جزيل · فوهب بيتهُ لمار عبد الاحد ليكون ملجأً لمن أراد ان يلحق بهِ لانّهُ حتى ذلك الوقت لم يكن مسكنٌ خاصّ بقدّيسنا غير دير برويّ · اذ انّهُ كان غالبًا يقضي الليل في الكنيسة او يستضيف المحسنين او اذا ما داهمهُ الليل ولا موضع لهُ كان يرقد على قارعة الطريق غير مفتكرٍ انّهُ هو الغزمانيّ سليل الامراء والملوك · فاستأذن قديسُنا السيّد فُلك مطران تولوزا بان يجمع في ذلك البيت من رغب في عيشتهِ · فأذن لهُ ولم يكتفِ بذلك بل مَنَّ عليهِ باحسن المواهب واسنى العطايا الروحيّة والجسديّة · فأقام رفاق عبد الاحد واعظين في ابرشيّتهِ ووهبهم سدس عشور الابرشيّة لسدّ حوائجهم · وكذلك الأمير سيمون المنفوريّ غمر هذهِ الجمعيّة بأجزل العطايا · ولكن العلاّمة لكُردير الدومنيكيّ يقول هنا : « سنرى يومًا عبد الاحد يتندّم على « قبولهِ املاكًا دنيويّة · وقبل رحيلهِ من هذا العالم سيلقيها عنهُ كما يُلقى « الحمل الثقيل ويترك ميراثًا لاولادهِ الاعتمادَ على العناية الربّانيّة عضد

« كلَّ خليقة كما هو مكتوب : القِ على الربّ همّك وهو يعولك »
(مز ١٧ : ٢٣)

ثمّ جمع عبد الاحد في هذا البيت بطرس وتوما وثلاثة او اربعة كهنة أُخر كانوا قد تبعوهُ . والبسهم جميعاً ثياباً على مثال اللّباس الذي لبسهُ منذ دخولهِ جمعيّة أُسما اعني بهِ ثوباً من صوف ابيض وعليهِ قميص كنسيّ من كتّان يتدلّى حتى الركب وفوقهُ عباءة وقبّعة سوداوين . ثمّ غيّرت مريم العذراء هذا اللباس مثلما سنرى . ومنذ ذلك الوقت صار هؤلاء الفضلاء يمارسون العيشة القانونيّة في هذا البيت نفسهِ . فيا ما اعجب التدابير الربّانيّة ويا ما اغمض خفاياها وشتّان ما بين الاعمال البشريّة الفانية والاعمال الالهيّة الدائمة . فإنّما يتصرّفُ الانسان في بدء اعمالهِ بكلّ فخفخة وعظمة فيسطع هنيهةً ويأخذ بالهبوط والخمول . وامّا الرب عزّ وجلّ فيبدأُ أعظم مشروعاتهِ بالمشقّات والضيقات وبكلّ تواضع وهدوّ . وبمقدار ما تكون الامور صعبة في بدئها تنجح وتبلغ أعلى ذرى الكمال . فما عساكَ ان تكون يا قطيعاً صغيرًا اذ حملتَ عبد الاحد عناءً جسيماً ومشقّةً لم يزل مدّة عشر سنين يتجرّع غصصها وقد احدقت بهِ ابالسة هذا العالم . ما عساكَ ان تكون يا قطيعاً صغيرًا اذ ارسل الربّ قدّيساً عجيباً وأعدّهُ مدّة خمس واربعين سنة ليجمعكَ ويرعاكَ . فيا ايتها الجمعيّة الصغيرة ما اشبهكِ بفادي العالم المضجع في المذود وهو اله . فانتِ ايضاً صغيرة في عيون الناس امّا امام الله فانّكِ لكبيرة جليلة اذ انّهُ منكِ يخرج ملافنة وقدّيسون يتلألأون

كَكواكب في سماء الكنيسة وينتشر نورهم في العالم اجمع وتضرم قداستُهم القلوبَ الباردة فها انا أُحيّيكِ يا ايتها الجمعيّة المباركة قائلًا: سلام الله عليكِ يا رهبنةً جديدةً موسومةً بسِمة الطفل الالهيّ اذ وُلدتِ مثله بالفقر والتواضع . فانهضي على مثال فادي البشر واملئي العالم من نوركِ واسعريهِ بقداستكِ فانهُ ينتظر من يبدّد ظلام ضلالهِ ويحرق زؤان فسادهِ

ولكن لا يكفي لنجاح الرهبنة وانتشارها في اقطار المسكونة ان تُولد بالتواضع بل ينبغي ان تكون شرعية مؤسّسة على تلك الصخرة التي جعلها الرب أُسّ كنيستهِ . ولذا عزم عبد الاحد ان يسافر الى رومة ليحصل على اجازة رهبنتهِ ويطلب امداد من لا تقوى الجحيم عليهِ . فانتهز فرصة التئام المجمع اللاتراني ورافق صديقهُ السيّد فُلْك فاشاد المطرانُ بذكر عبد الاحد واثنى عليهِ امام الحبر الاعظم وسأَلهُ ان يُؤيّد ما أَسّس هذا القدّيس من الرهبنات . فرحّب الحبرُ الاعظم بعبد الاحد وأجاز بكلّ سرور رهبنة النساء ولكنّهُ امتنع عن اجازة رهبنة الرجال الواعظين المقتدين بالرسل الاطهار . لانّ الوعظ ما كان مختصًّا الاّ بالاساقفة خلفاء الرسل . وزيادة على ذلك اذ رأى المجمع الملتئم انّ سمّ التراخي قد نفذ في اغلب الرهبنات حكم وقال: «خوفًا من ان « اختلاف رهبناتٍ مُتعدّدة يسبّب في الكنيسة بلبلةً مُضرّة نَنْهى « نهيًا قاطعًا انشاء رهبنةٍ جديدة . فان شاءَ احدٌ الترهّب فعليهِ ان « يتخذ قوانين احدى الرهبنات المؤيّدة» . وهذهِ الصعوبات لم تكن

لتزعزع عزائم عبد الاحد فشرع يصلّي عالمًا انّهُ بالصلوة يُمنح المرء ما يرغب · فلم يخيّب الربّ آمال عبدهِ اذ انّ الحبر الاعظم رأى في الحلم انّ كنيسة مار يوحنا اللاتراني (St. Jean de Latran) امّ كنائس العالم اوشكت ان تسقط · واذ كان يرتعد خوفًا من هذا الهبوط المريع بادر عبد الاحد وسند بكتفهِ بنيان الكنيسة · فعلم الحبر الاعظم ارادة الباري تعالى فدعا عبد الاحد وأمرهُ بالاياب الى مدينة تولوزا كي يختار قوانين احدى الرهبنات القديمة فيجعلها أُسًّا لقوانين رهبنتهِ وذلك مراعاةً لما سنّهُ المجمع بخصوص الرهبنات الجديدة

فرجع عبد الاحد الى تولوزا ووجد تلامذتهُ الذين كان تركهم في بيت بطرس سلاّني قد بلغ عددهم ستة عشر · ثمانية منهم فرنسيّون وسبعة اسبانيّون وواحدٌ انكليزيّ · وبعد المفاوضات الوداديّة القلبيّة اعلن لهم اجازة الحبر الاعظم ثمّ اخذهم بمعزل في دير برويّ كي يتخيّروا لهم قانونًا تحت حماية مريم العذراء القدّيسة



الفصل الحادي عشر

في سنّ القانون

قد سبق الكلام في انّ مار عبد الاحد أَراد ان يجمع بين العيشة النسكيّة والرسوليّة ويقيم في جمعيتهِ رسلًا يقدّسون نفوسهم برياضات السيرة الرهبانيّة فيسعون سعيًا فعّالاً في بثّ نور الايمان وتقديس القريب. واذ أَمرهُ الحبر الاعظم ان يبني قوانينهُ على اسّ رهبانيّة قديمة مؤيّدة لم يرَ في قوانين الرهبنات العهيدة قانونًا اوفق لغايتهِ من قانون القدّيس اوغسطينوس. ومن جملة الاسباب التي حملتهُ على ايثار ذلك هو ان منشئهُ كان رسولاً احرى منهُ راهبًا وسنَّ شريعة لم يكن فيها سوى مبادىء عموميّة للارتقاء الى الكمال وشرحٍ مختصرٍ في الفضائل الانجيلية كالفقر والطاعة والعفّة ومحبّة الله والقريب وسائر الفضائل التي لا غنًى عنها لكلّ جمعيّة خصّصت ذاتها بحبّ الله. واختار مار عبد الاحد هذا القانون ليمكنهُ ان يضيف اليهِ ما يراهُ مناسبًا لغايتهِ بدون ان يغيّر منهُ شيئًا. فضمَّ اليهِ تلاوة الصلوة الفرضيّة جهارًا. والانقطاعَ الدائم عن اللحم. والصوم الى الظهر من عيد الصليب حتى الفصح. والاقرار بالنقائص امام الاخوة والتعويض عنها. والدرس والتدريس. والاستعداد الحسن قبل الاخذ بالانذار بكلام الله. ولذا أَذن لرهبانهِ بالتردّد الى الكلّيات المشتهرة ليقرأُوا على معلّمين ماهرين ويدبّروا المدارس. وجعل انذار النفوس جُلَّ غاية رهبنتهِ. ومع ان

سلاح تلامذتهِ الخاصّ كان الصلوة والتعليم لم يحرّم على رهبانهِ شيئاً يمكنهُ ان يأول الى صلاح القريب لانّ خلاص النفوس صار لهم القاعدة الاولى . ولهذا أباح لهم اكل اللحم خارجاً عن الدير وعفاهم من الصوم الرهباني الاعتياديّ ما عدا يوم الجمعة وزمان امساك الميلاد وبعض البيرمونات . ولم يلزم تحت الخطا مجاوزة ايّ جزء كان من أجزاء القانون عدا النذور الثلاثة . واجاز للرؤساء التفسيح اذا ما رأوهْ مناسباً كي لا يمتنع الخير من جراء العيشة النسكيّة

واما بخصوص السياسة فحدّد ان تُقسم الرهبنة الى اقاليم وان يؤلّف كلّ اقليم من عدّة أديرة وان يُقام على الرهبنة كلّها رئيسٌ عامٌّ يدبّرها . وان يُجعل على كلّ اقليمٍ رئيسٌ خاصٌّ وعلى كلّ ديرٍ من الاديرة التابعة الاقليم رئيسٌ أخصّ ينتخبهُ رهبان الدير ويؤيّدهُ رئيس الاقليم . وحكم ان يجتمع لانتخاب الرئيس الاقليميّ روساء أديرة الاقليم وكلّ منهم يصحبهُ راهبٌ من ديرهِ فيختارون لهم رئيساً اقليمياً يؤيّدهُ الرئيس العامّ . وحدّد مار عبد الاحد ان يلتئم لانتخاب الرئيس العامّ روساء الاقاليم وكلّ منهم يصحبهُ راهبان فيتخيّرون من يرونهُ جديراً بسياسة الرهبنة كلّها ويقيمونهُ عليها رئيساً عامّاً . ومن الواضح ان هذا الترتيب الحسن يجعل للرئيس منزلةً عظمى في قلوب الاخوة لانّهم هم الذين انتخبوهُ واليهِ سلّم قضيب الرئاسة . وامر عبد الاحد ان لا يقام الرئيس الاّ لثلث سنين ما عدا الرئيس العامّ كي لا يجلس بعض الروساء العاجزين زمناً طويلاً على سدّة الرئاسة ويُترك في لجّة النسيان من كان

جديرًا بها · وبهذا جمع بين الوحدة والألفة الجمهوريّة · فيا لها من حكمةٍ فاقت تدابير أَعظم الشرّاع فانّ هذهِ القوانين صانت رهبنة مار عبد الاحد من كلّ تغيير مع انّ اغلب الرهبنات قد تشعّبت وتغيّرت · وامّا هذهِ فبحكمةِ شارعها لم تتغيّر مع تغيّر الأَزمنة · وها قد جاوزت ستّة أَجيال وحملت على عاتقها وقر سبعمائة سنة وقوانينها لا تزال موافقة الأزمنة على اختلافها · انّها قد اضحت قديمة وهي لم تشِخ ولم تبلَ بل حفظت دائمًا قوّة صبوّتها · فيا ما أَحسن هذهِ القوانين · ولله درّ شارع دامت شرائعهُ وتخلّدت

وعزم مار عبد الاحد ان يُلقي على الربّ همّ معيشة رهبانهِ ويحتم عليهم بالتسوّل لانّهُ كان يشاهد بغاية الأَسف تراخي الرهبان الناشيء عن التفاتهم الى الخيرات الدنيويّة وارتباكهم فيها · ولكن خوفًا من انّ هذا القصد الجديد الغريب يصدّ الحبر الاعظم عن ان يُجيز القانون اجازةً تامّةً اجّل الى وقت مناسب رسْم هذا الفقر الكامل الذي شغفهُ منذ اوّل عيشتهِ الرسوليّة

امّا السيّد فُلْك الكريم فلم يفتأْ يغمر صديقهُ مار عبد الاحد بأغزر العطايا. ووهبهُ ثلث كنائس ليشيّد فيها أَديرة · فشمّر مار عبد الاحد عن ساعد همّتهِ لبناء ديرٍ في كنيسة القدّيس رومانس (St. Romain) وأَنهاهُ في أَواخر شهر آب · وفي هذا شغلهِ لم يُهمل تخريج رهبانهِ في العلم والفضيلة · فاختار منهم ستّة وذهب بهم ليقرأُوا اللاهوت على علاّمة شهير اسمهُ الكسندر · وممّا يؤيّد ذلك ما أَخبرنا بهِ الاب تِيرّي

دابولدا (Thierry d'Apolda) قال : « كان وقتئذٍ في مدينة تولوزا
« معلّم في اللاهوت كريم الاصل متفقّهٌ في العلم ذو شهرة عجيبة ونباهة
« غريبة . فحدث ذات يومٍ ان فاجأهُ النعاس اثناء استعدادهِ للتدريس
« قبل طلوع النهار فاتّكأ راسَهُ على كرسيّهِ ونام . فبان لهُ انّهُ قد أُتحف
« بسبعة نجوم فاخذ منهُ العجب كلَّ ماخذ . واذ هو يتفرّس في هذهِ
« المنحة الغريبة اذا بالنجوم السبعة قد أشرق نورُها وعظم جرمها فأنارت
« تلك الامصار بل الارض كلّها . وعندئذٍ انتبهَ من سباتهِ واذا بالفجر
« قد انفتق وبزغت الشمس . فدعا الغلمان ليحملوا كتبهُ ثمّ قام وذهب
« الى المكتب . وحين دخولهِ تقدّم اليهِ بكلّ تواضع الطوباويّ عبد
« الاحد ومعهُ رفاقهُ الستّة وقد توشّحوا بثياب جمعيّتهم وعرضوا عليهِ
« أمرهم قائلين انهم رهبان قد وقفوا انفسهم لإنذار المومنين وهداية
« الهراطقة في نواحي مدينة تولوزا فأتوا ليقرأوا عليهِ العلوم اذ انهم
« يتوقون الى سماع تعاليمهِ » . وبعد زمان صحّت هذهِ الرويا فانّ هذا
القطيع الصغير الفقير انتشر في العالم كلّهِ واتى بلافنةٍ سطعوا كالكواكب
الوهّاجة وبدّدوا الظلمات حال انتشارها

الفصل الثاني عشر

في ملاقاة مار عبد الاحد لمار فرنسيس في رومة وتاييد الرهبنة الدومنيكيّة

بعد ان رتّب مار عبد الاحد قوانين رهبنتهِ قصد رومة لنوال إجازتها • وفي اثناء سفرهِ بلغهُ خبر وفاة البابا انّوكنتيوس الثالث وتبوّء هونوريوس الثالث الكرسيّ الرسوليّ فرأى في هذا الموت خيبوبة آمالهِ لانّ البابا المتوفَّى لم يَعدهُ بتاييد رهبنتهِ الاّ وعدًا شفاهيًا ولم يدفع لهُ كتابةً في ذلك • وأيقن مار عبد الاحد ان قد ذهب سدى كلّ ما عاناهُ سابقًا وصار مشروعهُ هدفًا لِسهام آراء حاشية الحبر الجديد • وبالحقيقة انّهُ لم يمكنهُ حين بلوغهِ رومة تقديم قوانينهِ للحبر الاعظم • الاّ انّ هذا كلّهُ لم يُرخِ عزائمهُ بل درّعهُ ثقةً وشجاعةً فالتجأَ كعادتهِ الى الصلوة متأكّدًا انّ هذهِ الصعوبات والمحن انّما هي دليل راهن على انّ مشروعهُ ناشئ عن ارادة الله وهو سبحانهُ يتولَّى مساعدتهُ على اتمامهِ • فلم يترك اللهُ عبدهُ في الحيرة زمنًا طويلًا بل سلاّهُ وافعم قلبهُ سرورًا برؤيا فهم منها انّ مريم حبيبتهُ هي نفسها رامت انشاء هذهِ الرهبنة وانّها لم تتركهُ وحدَهُ لاصلاح العالم بل اصطفت لها ابنًا آخر يعاضدهُ

قال العلاّمة لكُردير (Lacordaire) : « وتمتّع مار عبد الاحد في « رومة بفرح اثّر فيهِ كلّ التاثير • فانّ العناية الربّانيّة لم تكن اصطفتهُ « هو وحدهُ ليُقيم الكنيسة من انحطاطها في تلك الأَزمنة العسرة •

« فبينما كانت نيران الشوق الى الانذار بالكلام الالهيّ تتوقد في قلبهِ
« المقدّس جذب الربّ اليهِ قلبَ رجلٍ آخر دعاهُ لِيُنعش حبَّ الفقر
« في نفوسٍ أَغرتها الرفاهية واليُسر . وكان هذا الرجل المغرم بحبّ
« يسوع المسيح قد وُلدَ في منحدر جبال أُمبرِيا (L'Ombrie) في
« مدينة اسّيس (Assise) من تاجر غنيّ بخيل . وكان يحسن اللغة
« الفرنسيّة فأُطلِق عليهِ اسم فرنسيس مع انهُ لم يُدعَ بهذا الاسم لا في
« ولادتهِ ولا في عماذهِ . وعند عَودتهِ من سفرهِ الى رومة (وكان عمرهُ
« اذ ذاك ٢٤ سنة) امتلكهُ روح الله بالكليّة بعد ان كان التمسهُ
« مرارًا متعدّدة . فذهب هذا الشاب البطل مع أَبيهِ الى اسقف اسّيس
« وتنزّل امامهُ عن حقوقهِ البنويّة بل انّهُ خلعَ ثيابَهُ نفسها ووضعها عند
« اقدام المطران قائلًا : ــ الآن يمكنني بالحقيقة ان اقول : ابانا الذي في
« السموات ــ . وبعد هذا الحادث بقليل اذ كان يسمع القدّاس الالهيّ
« في احد الايّام تُلي على سماعهِ الانجيل الذي يوعز فيهِ يسوع الى رُسُلهِ ان
« لا يقتنوا ذهبًا ولا فضّةً ولا نحاسًا في مناطقهم ولا هميانًا في الطريق .
« فلدى سماعهِ هذهِ الاقوال فاض في قلبهِ سرورٌ لا يوصف فنزع حذاءهُ
« ورمى عصاهُ والقى عنهُ بنفورٍ ما كان يملكهُ من الدراهم القليلة
« وعاش بقيّةَ حياتهِ لا يملك سوى سروال وثوب وحبل . وكان يفزع من
« هذا المقتنى الزهيد ولذلك فقبلَ وفاتهِ طلب ان يُوضع عريانًا امام
« اخوتهِ على البلاط مثلما كان قد تعرّى امام اسقف اسّيس في بدء
« رجوعهِ التامّ الى الله .

« وحدث هذا كلّهُ بينما كان عبد الاحد ينذر بالانجيل في بلاد
« لنكدوك مخاطرًا بحياتهِ وممزقًا بعيشتهِ الرسوليّة احشاء الهرطقة
« ايّ ممزق . فيا ما اغرب واكمل الموافقةَ التي صارت بين هذين الرجلين
« وهما لا يدريان بذلك ويا ما اعجب الاخوّةَ التي تخلّدت في حوادثَ
« عقِبت موتهما ايضًا . فعبد الاحد وكان الاكبر باثنتي عشر سنة سلك
« استعدادًا لرسالتهِ مناهج العلوم ثمّ لحقهُ اخوهُ الاصغر وهو فرنسيس
« وقد نبغ في علم الفقر والمحبّة دون ان يتخرّج في المدارس العامرة .
« وفي الوقت الذي فيهِ شرع عبد الاحد بوضع اسّ رهبنتهِ في كنيسة
« سيّدتنا في برويّ (N. Dame de Prouille) في لحف جبال
« بيرِنه (Les Pyrénées) كان فرنسيس يؤسّس رهبنتهُ في كنيسة
« سيّدة الملائكة (N. Dames des Anges) في لحف جبال
« ابّنين (Les Appenins) . وهكذا فمزاران قديمان للعذراء الطوباويّة
« امّ الله اضحيا لكليهما اسًّا وضيعًا لكنّهُ منيعٌ عليهِ رفعا بناءً
« عظيمًا . وكان معبد سيّدة برويّ اعزّ محلّ على قلب عبد الاحد وكذلك
« معبد سيّدة الملائكة كان قطعة الارض الوحيدة التي تعلّق بها فرنسيس
« وافرد لحبّها موضعًا في قلبهِ المتجرّد عن كلّ منظور . وكلاهما كانا قد
« ابتدأا حياتهما الجهريّة بالحجّ الى رومة ثمّ قصداها كلاهما ثانيةً كي
« يلتمسا تأييد رهبنتيهما . وبعد ان رفض البابا انوكنتيوس الاجابة اليهما اضطرّ
« لاجل رؤيا واحدة ان يهب لكليهما إجازةً شفاهيّة وقتيّة . وكلاهما
« جمعا تحت قوانينهما الرهبان والراهبات والعائشين في العالم وعلى هذا

« النحو الّفا ثلث مراتب للرهبنة جعلا اعضاءها جيشًا واحدًا محاربًا
« من اجل يسوع المسيح بأساحة النعمة والطبيعة . الاّ انّ عبد الاحد
« ابتدأ بالنساء واما فرنسيس فبالرجال . وأيّد الحبر الاعظم هونوريوس
« الثالث كلتا طريقتيهما ببراءةٍ رسوليّة . وغريغوريوس التاسع نظمهما
« كليهما في سلك القدّيسين . ونشأ اخيرًا من رهبنة كلٍّ منهما ملفان
« شهير أنار ضريحهما فالقدّيس توما انار ضريح مار عبد الاحد والقدّيس
« بونونتورا (Bonaventure) انار ضريح مار فرنسيس »

ولكنّ هذين الرجلين المتشابهين عملًا وفضيلة لم يكونا قد تعارفا بعدُ . فحدث ذات ليلةٍ اذ كان مار عبد الاحد في كنيسة مار بطرس الرسول يناجي الله حسب عادتهِ اختطف بالروح وشاهد يسوع المسيح ساخطًا غضوبًا وفي يدهِ ثلاثة اسهم يتهدّد بها العالمَ الغائص في بحر الآثام والخطايا . ولّما أراد ان يطعنهُ بها خرّت مريم الامّ الحنون على قدميهِ طالبةً الرحمة . فلما رأت انّ غضب ابنها لا يهدأ قدّمت لهُ رجلين فقيرين واعدةً بانّهما يصلحان العالم . وكان احدهما عبد الاحد هو بنفسهِ واّما الآخر فلم يعرفهُ . فعندما رأى يسوعُ هذين الفقيرين طَفِئت نارُ غضبهِ فألقى السهام من يدهِ . امّا عبد الاحد فلم يزل مصوّرًا في فكرهِ هيئةَ رفيقهِ وثيابهُ الرثّة . وفي الغد اذ كان قاصدًا الكنيسة ليصلّي صادف ذلك الفقير الذي قدّمتهُ مريم لابنها معهُ فبادر اليهِ واحتضنهُ قائلًا : « انك لرفيقي وستكون معي فلندُم متحدين فلا يقوى علينا احد » .
قال هذا واقتصّ على فرنسيس الرؤيا وقلباهما يتهلّلان فرحًا سماويًا

وينتعشان حبًّا متبادِلاً · فدامت صداقتهما مدّة حياتهما بل اضحت وراثة لاولادهما · فكما اتحد الأبوان قلبًا وعملًا كذلك اتّحد الاولاد وامتزجت اعمالهم ودماؤهم في العالم أجمع · ومار فرنسيس نفسهُ قد حدّث بهذهِ القصّة

فتضاعفت لذلك شجاعة مار عبد الاحد واشتدّت ثقتهُ بشفاعة امهِ مريم العذراء · فقدّم للحبر الاعظم قوانينهُ وكشف القناع عمّا في قلبهِ · فعمل كلامهُ في قلب البابا هونوريوس الثالث فأَصدر براءتين في اليوم الثاني والعشرين من كانون الاوّل سنة ١٢١٦ · في الاولى ايّد الرهبنة ودعاها رهبنةً قانونيّة مُنطوية تحت قانون مار اوغسطينوس · وفي الثانية سمّى رهبان مار عبد الاحد محامين عن الايمان ونورًا حقيقيًّا للعالم · وفي اليوم السادس والعشرين من كانون الثاني سنة ١٢١٧ أصدر براءةً اخرى فيها دعا مار عبد الاحد ورفاقهُ باسم « الاخوة الواعظين » · وكان سالفهُ قد اطلق عليهم هذا الاسم الشريف · فانّ البابا انّوكنتيوس الثالث اذ اراد ان يكتب ذات يوم كتابًا لمار عبد الاحد استدعى كاتم اسرارهِ وقال لهُ: « اجلس واكتب كذا وكذا للاخ عبد الاحد ورفاقهِ » · ثمّ توقّف وقال لهُ : « لا بل اكتب هكذا : الى الاخ عبد الاحد والذين « يعظون معهُ في تولوزا » وبعد قليل قال لهُ : « لا بل كذا : الى الرئيس « عبد الاحد والاخوة الواعظين » · وفي تلك البراءة الأَخيرة أَيّد البابا هونوريوس اسمهم هذا وأَحيا شجاعتهم واظهر ما كنّهُ قلبهُ من الحبّ لهم · وها انا اوردها بحرفها مفضّلًا ايّاها على ما سواها لِما فيها من المدح والثناء

وهي اهلٌ ان تُدوَّن حتى الأَبد في تواريخ الاخوة الواعظين وتبقى راسخة في ذهن كلّ عضوٍ من اعضائهم

«من هونوريوس الاسقف خادم خدّام الله الى بنيهِ الأَحبّاء رئيس
« دير القدّيس رومانس واخوتهِ الواعظين في بلاد تولوزا السلام
« والبركة الرسوليّة

« انّنا نقدّم لموزّع الآلاء الالهيّة ما يحقّ لهُ من الحمد والشكر
« على العطيّة التي منحكم ايّاها والتي نرجو ان تدوموا متمتّعين بها الى
« النهاية . فانّكم لا تزالون ونار الحبّ تستعر في باطنكم تعبّقون الارض
« بأريجٍ ساطع يسرّ الأَفئدة السليمة ويشفي القلوب السقيمة . فانتم
« هم الاطبّاء الحكماء المقدِّمون للقلوب الضعيفة دواءً روحيًا يقيها المحْل .
« وما ذاك الدواء الاّ بذار الكلام الالهيّ المخصب ببلاغتكم الخلاصيّة .
« انتم الاجراء الامناء الذين اليهم سُلّمت الوزنة فاثمرت في ايديهم
« وسوف يردّونها الى الربّ هي وارباحها . انتم صناديد المسيح البسلاء
« المتدرّعون بترس الايمان واللابسون خوذة الخلاص الذين لا يخشون
« مَن يقتل الجسد بل يكافحون بنخوة عظيمة اعداء الايمان ويلاقونهم
« بكلام الله الذي يمضي ويخرق ولا مضاء السيوف المرهفة ويبغضون
« نفوسهم في هذا العالم كي يجدوها في الحيوة الابديّة . ومن حيث انّ
« الاكاليل يوهب لمن نال الغلبة لا لمن باشر الكفاح وانّ الثبات وحدهُ
« يجني ثمار الفضائل كلّها فنطلب اليكم في رسالتنا الرسوليّة هذهِ ونحثّ
« محبّتكم ان تجتهدوا لمحو خطاياكم في ان تزدادوا تقويًا في الربّ

« وتنذروا بالانجيل في وقتهِ وفي غير وقتهِ وتحسنوا القيام بالفروض المرتّبة
« على المبشّرين . واذا ما عاينتم في هذا السبيل بعض المشقّات والمحن
« فلا تستكفوا باحتمالها بل افرحوا وتهلّلوا مع الرسول لانّكم حُسبتم اهلاً
« لمكابدة العار من اجل اسم يسوع . لانّ هذهِ الضيقات الخفيفة الزائلة
« هي بموازاة ثقل مجدٍ عظيمٍ لا تقابلهُ البتة اوجاع هذهِ الدنيا . ونطلب
« اليكم ايضاً نحن الذين اعتبرناكم ابناء اخصّاء فضممناكم الى حضننا
« ومحضناكم حبًا ابويًّا ان تتضرّعوا من اجلنا الى الله في صلواتكم لعلّهُ
« يمنح لادعيتكم ما لسنا خليقين ان ننالهُ بواسطة استحقاقاتنا الشخصيّة »

فها قد وُلدت رهبنة مار عبد الاحد . وُلدت صغيرة كما وُلد يسوع المسيح في بيت لحم واقتبلت سِمةَ العماذ من الحبر الاعظم . وصارت مريم العذراء اشبينة لها اذ انها بنفسها قد قدّمت لابنها الالهيّ منشئها عبد الاحد ووعدتهُ بانهُ سيصلح العالم ويُنيرهُ . ودُعيت باسمٍ شريف لم يخترعهُ انسان لكنّهُ أُنزِل من عند الربّ بواسطة احبارهِ وهو « الاخوة الواعظون » واقتبلت بعدئذٍ التثبيت فتأيّدت وتدرّعت بقوّة يسوع وبركة نائبهِ فما لها الآ ان تنمو وتقوى . ولكن مثلما انّ مبدأ هذهِ الرهبنة وتاييدها صارا بعلاماتٍ الهيّة عجيبة هكذا أوضح الربُّ جليًا الدعوة التي اعدّها لها وذلك في رؤيا رآها منشئها عند إقامتهِ في رومة . وبها اظهر لهُ الله انّ رهبنتهُ لا تفلح وتنتشر الاّ بالاشغال الرسليّة الشاقّة . وهاك وصف الرؤيا : كان مار عبد الاحد يصلّي لاجل نجاح رهبنتهِ فظهر لهُ الرسولان بطرس وبولس واعطاهُ الاول عصا والآخر كتابًا وهم

يقولان له: « اذهب واكرز فلهذا اختارك الله ». ثمّ رأى تلاميذهُ يذهبون اثنين اثنين في العالم كلّهِ بلا ذهبٍ ولا فضّةٍ لينذروا بكلام الله. وفهم معنى هذهِ الرؤيا وعزم على اجرائها بالعمل حين إيابهِ الى رهبانهِ وتذكرةً لذلك صار في كلّ اسفارهِ يحمل رسائل مار بولس في كيسهِ وعصاً بيدهِ

الاّ انّ الصوم الكبير وافاهُ فلم يمكنهُ من العود الى اخوتهِ فأخذ يعظ في رومة ويعدّ شعبَ الله للفصح. وفوّض اليهِ الحبر الاعظم نفسهُ شرح عقائد الايمان في القصر البابويّ امام جميع الكرادلة والمطارين الغرباء الذين كانوا يأتون الى رومة ليملأوا نفوسهم من روح الايمان في رياض ينبوع الحق المسلَّمة الى خلفاء بطرس الرسول. ونال هناك نجاحاً اعظم من ان يوصف وتعجّب الحبر الاعظم لِما رآهُ فيهِ من غزارة العلم والحكمة فأراد ان يبقيهُ في رومة فأقامهُ ملفاناً واعظاً على حاشيتهِ. وخلَفهُ اولادهُ في هذا المقام السامي ولم يزالوا حتى يومنا هذا يحسنون القيام بمهامّتهِ وينالون الثناء على جدارتهم واهليّتهم. على انهم زادوا هذا المنصب شرفاً ورفعةً فأضحى كلّ من يتقلّدهُ منهم اوّل لاهوتيّ يركن اليهِ الحبر الاعظم ويفوّض اليهِ الفحص عن الكتب واعطاء رتبة الملفنة لمن يراهُ اهلاً لها في كليّة رومة وانتخاب من هو خليقٌ بالوعظ امام الحبر الاعظم

وكان مار عبد الاحد مدّة اقامتهِ في رومة يتردّد الى بيت الكردينال أُكلين (Ugolin) الذي خلَف بعد ذلك هونوريوس الثالث وتسمّى غريغوريوس التاسع. وهو نفسهُ نظم مار عبد الاحد ومار فرنسيس

في سالك القدّيسين . فكان ذلك الشيخ الفاضل يُحبّ هذين القدّيسين محبّة خالصة وكان يتهلّل فرحاً عند زيارتهما اياهُ . فذات مرّة اذ كان مار عبد الاحد ومار فرنسيس يتفاوضان مع الكردينال بأُمور روحيّة سماويّة اذا بالكردينال قال لهما: « في بدء الكنيسة كان الرّعاة « يخدمون النفوس بالفقر والمحبّة فلمَ لا نرسم رهبانكم احبارًا فيفوقون « الآخرين علماً وفضيلة » . فلما قال هذا اخذ القدّيسان يحرّض الواحد صاحبهُ على مجاوبة الكردينال . ولم يبطئ تواضع مار فرنسيس ان ظفر بطاعة مار عبد الاحد فأَجاب قدّيسُنا قائلًا : « سيّدي إن اراد اخوتي « ان يحسنوا القيام بفرائض دعوتهم فالأَولى بهم ان يستمرّوا في مكانهم « وسأُفرغ كنانة جهدي في ان لا يقبلوا البتّة درجة كنسيّة عالية » . امّا مار فرنسيس فاذ كان يعلم بوحي الهيٍ ان هذا الكردينال سيكون يوماً خليفة البابا هونوريوس الثالث صار يتضرّع اليهِ بان لا يُنعم بادنى منصب على رهبانهِ مُردِفاً كلام عبد الاحد بهذا القول : « يا سيّدي انّ « رهباني يُدعَون الاخوة الصغار كي لا يؤمّلوا الارتقاء الى الدرجات « العالية لانّ دعوتهم هي ان يبقوا مرذولين ويقتفوا آثار مخلّصنا . فان « أردتَ ان يُثمروا في الكنيسة اثمارًا وافرة فلا تغيّر دعوتهم بل ردّهم « انت عند اللزوم الى سبيل التواضع . نعم يا سيّدي ارجوك ان لا تسمح « بان يرتقوا الى ايّ منصب كان » . فأثّر هذا الكلام كلّ التاثير في الكردينال ودفعهُ الى ان يشكر الربّ على هذا التجرّد التامّ ومع ذلك فانّهُ لّما تبوّأ الكرسيّ الرسوليّ رسم رهباناً كثيرين من كلتا الرهبنتين مطارين

وكان في بيت الكردينال شابٌ ايطاليّ يُدعى غليوم المنفيراتي (Guillaume de Monferrat) اتى الى رومة للاحتفال بعيد الفصح. فاخذ منظر مار عبد الاحد وكلامهُ بمجامع قلبهِ. فاتّفق معهُ ان يذهب واياهُ بعد درسهِ اللاهوت مدّة سنتين الى بلاد الفرس والنواحي الشماليّة للإنذار بالايمان المقدّس. ولكنّ الربَّ لم يدعُ عبد الاحد الى ذلك وامّا غليوم فقد انجز وعدهُ فانّهُ بعد سنين قليلة اقتبل الثوب الدومنيكيّ من يد القدّيس نفسهِ وتوجّهَ الى بلاد الفرس والى بغداد واقام هناك زمنًا طويلًا مع أخوين من رهبنتهِ وفي مدّة إقامتهم فيها أمال البطريرك النسطوريّ الى محبّة الايمان الكاثوليكيّ



الفصل الثالث عشر

في ارسال الاخوة الواعظين الى جهات مختلفة

امّا نجاح عبد الاحد في رومة فلم يكن لِيُنسيهُ اخوتهُ او يؤخّر سفرهُ . فبعد انتهاء الاعياد الفصحيّة تهيّأ للرجوع الى مدينة تولوزا . ولكنّهُ قبل مغادرتهِ رومة نذر امام الحبر الاعظم نذور رهبنة الاخوة الواعظين ثمّ اجتاز جبال الب (les Alpes) وبلغ تولوزا حيث كان اخوتهُ الستّة عشر ينتظرونهُ بفروغ ِ صبر . فرأى ديرهُ حسن الحال مغمورًا بافضال فُلك مطران تولوزا وبسخاء الكونت سيمون المنفوري (Simon de Monfort) . على انّ الفرح الذي شمل حينئذٍ قلبَ الاب والاولاد لا يوصف ولا يعبّر . ولقد يعجز اللسان عن ذكر العواطف الحبيّة التي تبادلتها قلوبهم الطاهرة . ولكنّهم لم يلبثوا ان حارت البابهم لدى سماعهم مار عبد الاحد يعلن لهم عزمهُ على تفريقهم حالاً وارسالهم الى سائر الجهات . فيا للعجب العُجاب اذ انهم لم يكونوا الاّ ستّة عشر وعبد الاحد اراد ان يقسم بينهم العالم كلّهُ . ولما سمع أصدقاؤهُ هذا الخبر الغريب ذهبت بهم الحيرة كلّ مذهب وخافوا على هذا القطيع الصغير . فاخذوا يعنّفون مار عبد الاحد مدّعين بانّ ما ذاك الاّ شوق مفرط الى عمل الخير يجعلهُ يتجاوز قواعد الفطنة . فهم كانوا يُفكّرون حسب العقل البشريّ وامّا هو فحسب الوحي الالهيّ . ولم يقدر احدٌ ان يثنيهُ عن عزمهِ . وكان هو يجيب الجميع قائلًا : « لا تمانعوني فانّي اعرف جيّدًا ماذا اصنع » . ولقد كان بالحقيقة

متأكِّدًا انهُ بفعلهِ هذا يصنع حسب ارادة البارىء عزّ وجلّ . فانّهُ ما زال يذكر الرؤيا التي رآها في كنيسة مار بطرس اذ سمع الرسولين يقولان لهُ: « اذهب واكرز » واذ شاهد الاخوة الواعظين يذهبون اثنين اثنين من كلّ جهة الى اقصى العالم فكثروا ونجحوا . وزاد الربّ على ذلك رؤيا اخرى بها اعلمهُ ان محاميَهُ ومساعدَهُ الكونت المنفوريّ مزمعٌ ان يُطرد من تولوزا ويُقتل . واوعز اليهِ ان لا ينتظر مساعَدةً منهُ بل عليهِ ان يتّكل على العناية الربّيّة فقط . واليك وصف الرؤيا : رأى مار عبد الاحد شجرة زاهية زاهرة تحمي تحت اغصانها طير السماء لعِظَمها واذا بضربةٍ فاجأتها وأَسقطتها فتبدّد كلّ من كان ملتجئًا اليها . فعرف انّ الشجرة هي سيمون المنفوريّ وانّهُ سيُكسر يومًا ولهذا ينبغي ان يخرج من تحت ظلّهِ والاّ فيتبدّد شمل اولادهِ . وكان يقول لهم : « ان الحنطة « اذا ما خُزنت فسَدت واذا ما زُرعت كثرت » . ثمّ أَعلن لهم ان يستعدّوا لينذروا النذور الاحتفاليّة في عيد انتقال السيّدة

ولما قرب العيد أَخذ رهبانَهُ الى دير بُرويّ ليقيم فيهِ حفلة النذر . وحضرها حبًّا لهذهِ الرهبنة الجديدة جمٌّ غفير من الشعب وعدّة من الكهنة والمطارين من جملتهم السيّد فُلْك مطران تولوزا والكونت سيمون المنفوريّ . وبعد ان قدّس مار عبد الاحد في الكنيسة بعبادة لا توصف نذر اخوتهُ بين يديهِ النذور الاحتفاليّة ثمّ وعظهم وفي نهاية عظتهِ نظر الى الزمان المستقبل فصار يتنهّد ويتحسّر ويتنبّأ بالمصائب والقصاصات التي كانت عتيدةً ان تحلّ بسكّان تولوزا لاجل عِنادهم وقساوة قلوبهم ثمّ

تمعّن في امراض البشر وهو ممتلىء من روح القدس فعرف داءها ودواءها بل نظر الى العالم اجمع نظرةَ قائدٍ يُريد إخضاع الارض كلّها لِسطوتهِ . ففكّر ان يُرسلَ جيوشَهُ المؤلّفة من ستّة عشر رجلًا الى الاماكن المحصّنة . فقسم الارض بين رهبانهِ وعيّن لاسبانيا بأسرها اربعة وهم عبد الاحد السيغوفيّ (١) وسُويرُز الغوميزيّ (٢) وميخائيل الاوزيرويّ (Michel de Uzero) وبطرس المدريديّ (٣) (P. de Madrid) وعيّن لباريس امّ العلم والعَمل ثلاثة فرنساويّين وثلاثة اسبانيّين ولورَن الانكليزي (Laurent) والفرنساويون كانوا متّى الفرنسيّ (٤) وبرتوند الكرّيكيّ (٥) واوديك النورمنديّ (٦) والاسبانيّون كانوا :

(١) Dominique de Ségovie وكان هذا اسبانيا وسماه جوردن السكسيّ رجلًا مكمّلًا في التواضع صغيرًا في العلوم كبيرًا في الفضائل

(٢) Suéroz de Gomez وهو احد الامراء الذين من حاشية سنش (Sanche) الاوّل ملك البرتوغال . فبعد ان تجنّد في الحرب الصليبيّة ضدّ الابجيين ودافع بشدّة ومراس عن الايمان الكاثوليكيّ امال اللهُ قلبهُ الى جندية روحيّة افضل درجة وارفع شانًا فترك كل شيء وانقطع الى الانذار بالكلام الالهيّ في حالة النفر و بعد ان افنى في هذه الحبوة ثوابًا لا يفنى توفي سنة ١٢٣٠ وقد دعاهُ كثيرٌ من المؤلفين قدّيسًا

(٣) ولا يُعرف شيء في شانها

(٤) Mathieu de France وهو الذي شاهد في الكنيسة عبد الاحد مختطفًا عن الحواس ومرتفعًا عن الارض فرافقهُ منذ ذلك الوقت وقضى حياتهُ في الطاعة وهو الذي اسّس في باريس دير مار يعقوب الشهير

(٥) Bertrand de Carrigue سمّي هكذا نسبة الى مسقط راسهِ وكان رجلًا ذا سيرة قشفية جدًّا وقد رافق قديسنا في اغلب اسفارهِ وبعد موتهِ مجد الله قبرهُ بالخوارق

(٦) Odéric de Normandie وهو اوّل اخ بسيط في الرهبنة

الطوباويّ مانيس (١) وميخائيل الفابريّ (٢) ويوحنا النافاريّ (٣) وفي تولوزا توما (٤) وبطرس سلاّني (٥) . وترك لدير برويّ غليوم كلارة (٦) ونوئيل الذي من برويّ (٧) . ولم يُبقِ لرومة وبولونيا سوى اسطيفان الميزيّ (٨)

---

(١) B. Mannès وهو اخو القدّيس عبد الاحد ولم يعلمنا المورّخون كيفيّة دخولهِ الرهبنة وقد سماهُ تيري دابولدا رجلاً محبًا للتامّل وقدّيسًا . وانتقل من دار الشقاء سنة ١٢٣٠ وحُرِّر اسمهُ في دفتر الطوباويين وعيّن كما ذكرنا آنفًا اليوم الثلاثون من شهر تموز للاحتفال بعيدهِ

(٢) Michel de Fabra وهو اوّل ملفان صار في الرهبنة وقد اثنى المؤرّخون على غيرتهِ الرسولية ومثابرتهِ على الصلوة والتامّل ووصفوا عجائبهُ الباهرة

(٣) Jean de Navarre دخل الرهبانية سنة ١٢١٦ في يوم عيد القدّيس اوغسطينوس ٢٨ اب . وهو الدومنيكيّ الوحيد بين رفقاء مار عبد الاحد الذي صار شاهدًا عند تثبيت مار عبد الاحد قدّيسًا والظاهر انهُ كان قد سكن معهُ وسافر بصحبتهِ مرارًا عديدة

(٤) كان توما رجلاً فاضلاً بليغ الكلام وهو من سكان تولوزا تبع مار عبد الاحد مع مواطنهِ بطرس سلاّني

(٥) Pierre Cellani هو الذي مرّ الكلام عنهُ بانهُ وهب بيتهُ لمار عبد الاحد فسكن هو ورفاقهُ الاوّلون . وترك بطرس ثروتهُ الكثيرة حبًا لله فزينهُ تعالى بفضائل غرّاء وكرّم ضريحهُ بالمعجزات

(٦) Guillaume Claret وهو من مدينة بامير ويقال انهُ بعد ان قضى عشرين سنة في الرهبانية دخل رهبنة السيسترسيين

(٧) Noël de Prouille ولا يعرف شيء مهمّ في شانهِ

(٨) Etienne de Metz كان في كركسون مع مار عبد الاحد منذ سنة ١٢١٧ وسُمّيَ الميزيّ لانهُ شيّد ديرًا في مدينة ميز

فهذهِ القسمة اعني قسمة العالم بين ستّة عشر راهباً كانت مشهداً غريباً ولكنّ ما اذهل العقول وافزعها غايةً هو انّه بعد ان عيّنهم لهذهِ البلاد الشاسعة أَمرهم حالاً ان يسافروا بلا ذهبٍ ولا فضّة وان لا يكتفوا بالانذار بكلام الله بل ان يقيموا اديرة ايضاً. واعطاهم بركتهُ بمثابةِ زوّادةٍ ومُقتنًى وأَوصاهم بالفقر والتواضع قائلًا لهم: « انطلقوا مشاةً بلا ذهب « ولا فضّة ولا تهتمّوا لِما في الغد. تسوّلوا قوتكم وانا أَعِدكُم بانّهُ لن « يعوزكم كفافكم اليوميّ رغمًا عن مشقّات الفقر وضيقهِ ». وحالما سمع هولاء الابطال امر ابيهم سافروا ليكرزوا ثمّ شادوا اديرة. وجميعهم وثقوا بوَعد ابيهم الاّ احدهم فانّهُ ابى السفر الاّ ان ياخذ ما لا بدَّ منهُ للطريق. فحزنَ مار عبد الاحد وجُرح قلبهُ وسالت من عينيهِ الدموع عند مشاهدتهِ احد اولادهِ لا يَثِقُ ثقةً تامّة بالعناية الربّيّة. فخرّ على قدميهِ وصار يطلب اليهِ ان يتشجّع ويُلقي همَّهُ على الربّ وهو يعولهُ. واذ لم يمكنهُ ان يزيل خوف الراهب امر ان يُعطى اثني عشر درهمًا فسافر

فما الذي جرى بهذهِ الرهبنة التي قد بدّد مُنشئها شملَها قبل ان تتقوّى وتشتهر. ما الذي حدث لهولاء الرهبان الذين فرَّقهم مار عبدُ الاحد الى الجهات وأَبعدهم عن ابيهم واصدقائهم وديرِهم وأَرسلهم بثيابٍ غريبة رثّة الى اقطار الارض لا محامي لهم ولا قوت. لم يحدث لهم الاّ الخير فانّ الرب الذي لا يترك مَن ترك كلّ شيء وتَبِعهُ هو صار اباهم وجعل الملائكةَ اصدقاءهم والارض كلّها مأواهم ومريمَ العذراء امَّهم. فاتّخذتهم تحت حمايتها ونسجت لهم ثيابًا من الطهارة واعدّت

لهم قوتًا سماويًّا لمّا كان البشر يبخلون عليهم بالقوت الزمنيّ وقلّدتهم سلاحَ الورديّة فكسروا الممالكَ بكلامهم واخضعوها بقداستهم . أجل نزل هولاء الابطال الى حومةِ القتال وصاروا يَفتتحون بسرعة لا مثيلَ لها قلاعَ العالمِ وحُصونَ الشياطين وينشرون فيها رأيةَ الصليب فنموا وكثُروا . واينما ساروا وحيثما توجّهوا وعظوا وشادوا اديرةً نصبوا فيها رأية الحقّ . وبالحقيقة انّ هولاء الرهبان اتّخذوا لهم علائم تُنبيء جيّدًا عن دَعوتهم في الكنيسة فانّ شِعارَهم هو الحق والحقُّ مؤسّس على صليب يسوع الحاوي ضمنهُ زنبق النقاوة وحِدادُ التوبة. وهذا الصليب محتاطٌ بسياج الورديّة المنيع وداخلهُ كلب في فمهِ مشعلٌ يُنير العالم ويضرمهُ وهو يرمز الى منشيء رهبنتهم . وكمّلوا غايةَ دعوتهم احسن تكميل حتى انَّ الحبر الاعظم هونوريوس صار يسمّيهم نورَ العالم



الفصل الرابع عشر

في سفر مار عبد الاحد الى رومة وما صنع حين اقامته في دير مار سكستوس

وفي أَواخر سنة ١٢١٧ جاز مار عبد الاحد جبال الب (Les Alpes) صحبة الاخ اسطيفان الميزيّ (Etienne de Metz) قاصداً رومة. وحين بلوغهِ اياها صار يفتّش عن محلٍ لائقٍ كي يشيّد فيهِ ديراً. وكان البابا انوكنتيوس الثالث قد بنى ديراً في كنيسة مار سكستوس (St. Sixte) ليجمع فيهِ الرّاهبات المتبدّدات في رومة بلا نظامٍ ولا قانون. ولكنّهُ تُوفّي قبل ان يُنجز قصدهُ هذا. فحينما رأى مار عبد الاحد ذلك الدير ولم يعرف سبب بنائهِ عزم أَن يطلبهُ من الحبر الاعظم. فتحفّى لهُ الحبر الاعظم بمزيد اللطف وأَنعم عليهِ بما طلب وأَوعز اليهِ ان يعود الى تعليمهِ ووعظهِ. وهذا هو اشهر أدوار حياة قدّيسنا المعظّم. اذ انّ انوار قداستهِ السامية سطعت حينئذٍ سطوعاً فائقاً وسُمعَ لمواعظهِ البليغة رنّةٌ عالية. وكان لكلامهِ قوّة عجيبة تنفذ القلوب وتليّنها وتسحق ما كان منها متصلّباً ولا غروَ من ذلك فانّ أَقوالهُ الحارّة كانت مقرونةً بالامثال القدسيّة والمعجزات الباهرة. وطارت شهرتهُ فتقاطرت اليهِ جموع الناس أَغنياء وفقراء. وسبت تعاليمهُ واعمالهُ كثيرين منهم فأَبوا الاّ ان يتبعوهُ. وأعرضوا عن كلّ شيءٍ وانضمّوا اليهِ وطلبوا الدخول في رهبنتهِ. فجمع في مدّة ثلاثة اشهر او اربعة

ما ينيف على مائة راهب وكلّهم اناس فضلاء زهور عصرهم صادفهم قدّيسنا كما يصادف المسافر الزهر في زمن الربيع . ولم تسُقهم الى التجنّد وراء لوائهِ غايةٌ دنيويّة . فانّ رهبنتهُ كانت خالية من كلّ جاذب عالميّ فضلًا عن انّ حياة رهبانهِ كانت موسومة بسِمة التواضع والفقر الكلّيّين . فلم تدعُهم اذن الى رهبنتهِ الاّ نعمة اللهِ وهي التي قوّت عزائمهم بإجرائها على يد مار عبد الاحد اصناف العجائب الباهرة التي عظمت في عيونهم وسلبتهم قلوبهم وعقولهم

فمن ذلك انهُ سقط سقفٌ في دير مار سكستوس على بنّاء فقتلهُ . فحزن الرهبان حزنًا عظيمًا وأتى عبد الاحد فرقّ لغمّ الرهبان وارتعب خائفًا على خلاص البنّاء . فأمر ان يرفعوا عنهُ الرّدم . ففعلوا فوجدوهُ جثّةً مهشّمةً مرضوضةً فقدّم القدّيس صلواتٍ حارّة لله سبحانهُ وتعالى فارتدّ البنّاء الى الحيوة مُعافًى والرهبان ينظرون اليهِ . ومرّة اخرى مرض الاخ يعقوب الميليّ (Jacques de Melle) وكيل الدير وأشرف على الموت فأتاهُ الرهبان بسرّ القربان والمسحة وصاروا يصلّون حواليهِ وهم يبكون عليهِ اذ انّهُ كان رجلًا فاضلًا أولى الدير نفعًا جزيلًا ولم يكن بينهم من يستطيع ان يقوم مكانهُ . فحنّ عبد الاحد لحزن اولادهِ وأمرهم بالخروج وأغلق الباب عليهِ وعلى المدنف وما زال يصلّي لاجلهِ حتى شفاهُ . ثمّ دعا الرهبان وردّهُ اليهم سالمًا . ويعقوب نفسهُ أذاع هذهِ المعجزة

قلنا انّ حياة الاخوة الواعظين موسومة بسمة الفقر الكلّيّ فهم رهبان متسوّلون لا شيء لهم سوى صدقات المسيحيّين . وكثيرًا ما أعوزهم

ضروريات المعيشة ولم يكن لهم ما ياكلون . فأتى الربّ لمساعدتهم مُظهِرًا لهم قدرة ابيهم القدّيس عبد الاحد ليُثبّتهم في فضيلة الفقر . فجاء ذاتَ يوم الوكيل يعقوب وأخبر القدّيس بانّهُ لم يتصدّق عليهم احدٌ بشيء وليس في الدير سوى ثلثة أرغفةٍ خبزًا . ففرح القدّيسُ بذلك وأمرهُ ان يُقسّم الأرغفةَ اربعين كسرةً على عدد الرهبان ويضع في مكان كلّ راهبٍ كسرةً واحدة . فلما حان وقتُ الظهر تقدّم الرهبان الى المائدة فوجد كلٌّ منهم لقمةً واحدةً من الخبز امامهُ . فصلّوا بحرارةٍ وفرحٍ ثمّ جلسوا كلّهم ليا كلوا . وكان مار عبد الاحد جالساً معهم وقد رفع قلبهُ الى اللهِ طالبًا العون والرحمة . فما أنهوا الكِسَرَ الاّ ودخل عليهم شابّان بلباسٍ أبيض واقتربا من مار عبد الاحد ووضعا امامهُ خبزًا شبيهًا بالخبز الذي كانوا يتناولونهُ كلَّ يومٍ ثمّ غابا دون ان يتلفّظا بشيءٍ . والراهبة سيسيليا (Sœur Cécile) حكت في تاريخها أنَّ اعجوبةَ تكثيرِ الخبز تكرّرت بعد ايّام قليلة وهاك كلامها بحرفهِ :

« عندما كان الرهبان يسكنون في جواري كنيسةِ القدّيس
« سكستوس . وكانوا اذ ذاك مائة راهب . أمر الطوباويّ عبد الاحد يوحنا
« الكلبري (Jean de Calabre) والبرتس الروماني (Albert le Romain)
« بالذهاب الى المدينة للتسوّل . غير انّهما عبثًا تطوّفا من الصبح حتى
« الساعة الثالثة من النهار . فشرعا بالرجوع الى الدير . وعند بلوغهما بيعة
« القدّيسة أنستازيا (Ste. Anastasie) صادفتهما امرأةٌ كانت كثيرة
« السخاء على الرهبنة الدومنيكيّة . فعلمت أنّهما لم يُصيبا شيئًا فتصدّقت

« عليهما برغيفٍ قائلةً : ــ لستُ أُريد أن ترجعا خائبَين ــ فتتبَّعا مسيرَهما
« وإذا برجلٍ متسوّلٍ دنا منهما وألحّ عليهما بان يتصدّقا عليهِ . أمّا هما
« فأنكرا عليهِ طلبتهُ معتذرين ومقرّين بعوزهما . فأكثرَ المتسولُ في الإلحاح .
« فقال أحدهما للآخر : ــ لِأَيّ شيء يصلح لنا رغيفٌ واحد . ألاَ
« لنُحسن بهِ اليهِ لوجهِ الله الكريم ــ . فأعطياهُ رغيفَ الخبز فغاب عن
« نظرهما . وعند دخولهما الدير لاقاهما الأب القدّيس وقد أعلن لهُ الروح
« القدس الواقعة كما حدثت . فقال لهما بوجهٍ بشوش : ــ ألم تصيبا
« شيئًا يا ولديَّ ــ . فأجاباهُ : ــ كلاّ يا أبانا ــ . ثمّ قصّا عليهِ ما جرى
« لهما وكيف أعطيا الخبز للفقير . فقال لهما : ــ انّما الفقير كان ملاك الرب .
« والربّ يرسل وكيلهُ لِيقيت عبيدهُ . فهلمَّ نُصلِّ ــ . فدخل الكنيسة
« وصلّى ثمّ خرج بعد هنيهةٍ وأمر الراهبَين أن يدعُوَا جماعة الرهبان
« الى بيت المائدة . فقالا : ــ كيف ندعوهم وليس لنا ما نقدّمهُ لهم ــ . ثمّ
« اخّرا إجراء ما أُمرا بهِ . فدعا الاب عبد الاحد الاخ روجر (F. Roger)
« حافظَ المؤونة وأمرهُ أن يجمع الرهبان للغداء لانّ الرب شاء ان يسدّ
« عوزهم . فأُعدّت المائدة واقبل الرهبان اليها . فاقام الاب الطوباوي
« الصلاة ثمّ جلس الجميع وبدأ الاخ هنري الروماني بالقراءة . ولم يزل
« مار عبد الاحد يصلّي ويداهُ منضمّتان الى المائدة حتى ظهر شابّان جميلا
« المنظر من خدَمة العناية الالهيّة كما كان قد وُعد بالهام الروح القدس
« ووقفا في وسط بيت المائدة وكان كلٌّ منهما حاملاً خبزًا في سِماطٍ أبيض
« نازلٍ على كتفهِ من وراء ومن قدّام . فاتّجهَ احدُهما يمنةً والآخر يسرةً

« وأخذا بالتوزيع بادئين من الصفوف السُفلى ووضعا امام كلٍ من الرهبان
« رغيفًا كاملًا فائق الحسن . ولما انتهيا الى القدّيس عبد الاحد وَضعا
« ايضًا امامهُ رغيفًا كاملًا وأحنيا راسَيهما ثمّ غابا . وحتى اليوم لا يَعلم
« أحدٌ من اين أتيا والى اين ذهبا . فقال الطوباويّ عبد الاحد للرهبان :ـ
« كلوا الخبز الذي أرسلهُ الربّ لكم ـ . ثمّ أشار الى الاخوة الخدّام
« ان يقدّموا خمرًا . فاجابوا قائلين : ـ ايّها الاب القدّيس ما عندنا
« خمرٌ ـ . فامتلأ الطوباويّ عبدُ الاحد من روح النبوّة وقال لهم : ـ
« اذهبوا وخذوا من البرميل وناولوا الاخوة الخمرَ التي بعثها الربّ لهم ـ .
« فذهبوا ووجدوا البرميل ممتلئًا الى فوق خمرًا فاخرةً . فأسرعوا وأتوا بها
« فقال الطوباويّ عبد الاحد : ـ اشربوا يا اخوتي الخمر التي أرسلها
« الربّ لكم ـ . فأكلوا وشربوا كلٌ حسب طاقتهِ . وفي الغد اكلوا
« ايضًا وشربوا وكذلك في اليوم الثالث . وفي نهاية عشاء اليوم الثالث
« أمر مار عبد الاحد ان يُعطى الفقراء ما تبقّى من الخبزِ والخمر . ولم يشأ
« ان يُحفَظ في البيت شيءٌ من ذلك . ومدّة هذهِ الايّام الثلاثة لم
« يذهب احدٌ للتسوّل لانّ ما ارسلهُ لهم الربّ من الخبز والخمر كان
« كثيرًا . وبعدئذٍ القى الاب الطوباويّ على الرهبان خطبةً بديعة المعاني
« فيها حثّهم على أن لا يرتابوا ابدًا بالعناية الربّانيّة وإن وُجدوا في اشقّ
« فاقةٍ . وشهدَ هذهِ الاعجوبة الاخ تنكريد (F. Tancrède)(١) رئيس

(١) انّ الاخ تنكريد كان شريف الحسب والنسب من حشم الملك فريدريك الثاني (Frédéric II) فلما اتى بولونيا في اوائل سنة ١٢١٨ هجس في نفسهِ فكرٌ في

« الدير والاخ اودن (F. Odon) الروماني والاخ هنري(F. Henri)(١)
« مُواطِنهُ والاخ لورن (F. Laurent) الانكليزي (٢) والاخ
« غوديون(F. Gaudion)والاخ يوحنا الروماني وآخرون كثيرون وهم الذين
« قصّوا هذهِ الاعجوبة على الراهبة سيسيليا وعلى الراهبات القاطِنات
« حينئذٍ في دير مريم العذراء بالقرب من نهر التيبر (le Tibre) بل وأتوهنَّ
« بقليل من ذلك الخبز وتلك الخمر فحفظنهُ زمنًا مديدًا للتبرّك »

خلاصهِ الابديّ وغشيهُ خوفٌ من خطر الهلاك اذا ما استمرّ عائشًا في رفاهية العالم . فقلقَ لذلك وصلى الى العذراء مريم . فتراءت لهُ في الحلم تلك الليلة عينها وقالت لهُ : « ادخل رهبنتي » ثمّ نام فرأى راهبين لابسين ثيابًا غريبة وكان احدهما شيخًا . فهذا دعا اليهِ تنكريد وقال لهُ : « انك تتضرّع الى مريم العذراء ان تقودك في طريق « الخلاص . فتعال معي فتخلص » . فظنّ ذلك حلمًا كاذبًا اذ لم يكن قد رأى بعد زيًا يضاهي زيّ هذين الراهبين ولا سمع برهبنة جديدة كهذهِ . وعند الصباح طلب الى مضيفهِ ان يذهب بهِ الى الكنيسة ليحضر القداس . ولدى دخولهِ الكنيسة شاهد الراهبين اللذين ظهرا لهُ في الحلم وكانا من الاخوة الواعظين . وعرف الذي دعاهُ فطلب منهُ الثوب الرهباني واتى رومة ولحق بعبد الاحد وترأس على دير مار سكستوس

(١) كان هنري ابن احد اشراف رومة ودخل الرهبنة من دون علم اهلهِ فلما احسّ اهلهُ بذلك استشاطوا غضبًا وعزموا ان يخرجوهُ قسرًا . فارسلهُ عبد الاحد الى مكان آخر لكنّ اهل الشاب المذكور شدّوا في اثرهِ فلحقوهُ وهو يعبر النهر . فلما رأى هنري انهُ اوشك ان يقع بين ايديهم اخذ يصلي الى الله تعالى كي ينشلهُ وذلك باستحقاقات مار عبد الاحد . فما انهى صلاتهُ الاّ وتزخّر النهر فلم يستطع احد ان يجتاز من هنالك فعدلوا عن امرهم وآبوا خائبين . فلما راهم راجعين اراد العود الى الدير واذ وصل الشاطىء نقص الماء كالاوّل . فجازهُ واتى الدير فرحًا مسرورًا

(٢) وهو الذي كان قد ارسلهُ عبد الاحد الى باريس واتى الى رومة مع يوحنا النافاري (Jean de Navarre)

وذات يوم أعلن القدّيس للرهبان انّ اثنين منهم يموتان بالروح واثنين بالجسد وصحّت هذه النبوّة فانّهُ بعد ايام قليلة خلع اسكيم الرهبنة اثنان منهم فعاشا عيشةً رديّةً . واثنان آخران ماتا ميتةً مُقدَّسةً وكان احدهما الاخ البرتس الذي أرسلهُ القدّيس للتسوّل مع احد الرهبان وهو الذي أعطى الرغيف للملاك

فهذه وغيرها من العجائب أجراها اللهُ على يد مار عبد الاحد لكي يثبّت الاخوة في الرهبنة ويرفع شان عبده رغمًا عن تواضعه . على انّ القدّيس كلّما أراد ان يَخمُلَ ذكرُهُ زادهُ الربّ فخرًا وشرفًا . من ذلك انهُ كان في رومة امراةٌ أرملةٌ شريفةٌ ذات تقوى وايمانٍ شديد . فهذه اشتاقت كثيرًا الى سماع ارشادات عبد الاحد وكان لها ولدٌ وحيد مريض . فدخل يومًا قدّيسنا العزيز كنيسةَ مار مرقس ليعظ فتركت هي خادمةً عند ابنها وذهبت لاستماع الوعظ . وعند رجوعها الى البيت شاهدت ابنها مائتًا . فثارت اذ ذاك في فؤادها عاصفةُ الأَحزان ولكنّ ثقتَها باستحقاقات مار عبد الاحد أَنعشت الأَمل في قلبها . فحملت جثّةَ ابنها وأَقبلت الى دير مار سكستوس . فلمّا دنت منهُ رأَت عبدَ الاحد واقفًا كانّهُ يتوقّع امرًا فرَمت ولدها عند قدميه ورفعت الغطاء عنهُ وهي تتنهّد الحسرات متضرّعةً اليه ان يردَّ لها ولدَها . فصار لتنهّداتها رجعُ صدى في قلب القدّيس فرقّ لبكائها . فاختلى هنيهةً وخرّ على الارض مُصلّيًا ثمّ عاد الى الميّت ورسم اشارة الصليب ومسك بيده فأَقامهُ وردَّهُ الى امّه حيًّا . وأَمرها ان لا تخبر احدًا بالمعجزة امّا هي فكادت

تطير فرحاً ولم تتمالك ان قصّت ما جرى لها . فشاع الخبر حتى بلغ سماع الحبر الاعظم هونوريوس الثالث فعزم ان يأمر الواعظين بان يُذيعوا المعجزة في كنائس رومة شكراً لله تعالى واكراماً للقدّيس ورهبنتهِ . الاّ انّهُ اضطُرّ أَن يعدل عن قصدهِ هذا لانّ عبد الاحد المتواضع أَعان لهُ انّهُ يترك رومة ويذهب الى بلاد الكفرة إن صنع ذلك . ولكن ما عتم ان شاع خبرُ المعجزة في رومة كلّها . واذ كان الناس قد سبتَهم فصاحة مار عبد الاحد وفضائلهُ صاروا يُوقّرونهُ ويكرمونهُ ويعتبرونهُ قدّيساً عظيماً . فهذا كان يصلّي الى الله باستحقاقات مار عبد الاحد وذاك يعدّ نفسهُ سعيداً اذا ما لمسهُ . ومنهم كانوا يسمّونهُ صانع العجائب . ومنهم يقصّون من ثيابهِ ليُبقُوها للتبرّك حتى أَنّ اسكيمهُ وعباءتهُ صارا بالكدّ يصلان الى ركبتيهِ . وامّا هو فكان ثابتاً على الفضيلة كالشجرة التي تأصّلت عروقُها في الارض فلا تقوى عليها الرّيح العاصف ولا تتمكّن السموم من تيبيسها . فما كانت الشدائد والمصائب لترخيهُ ولا الشرف والكرامات لتزعزع اركان تواضعهِ فانهُ لم يشأ وهو على هذهِ الحال من المجد ان يغيّر ثيابهُ المقصوصة حبّاً للفقر والتواضع ولو انّهُ بذلك كان يعرّض نفسهُ لضحك بعض الناس واستهزائهم

فلمّا عاين ابليس اللعين ما كان يصنع عبد الاحد من الخير العظيم استشاط غضباً وعزم ان يُثير عليهِ حرباً عواناً فلقي من ذلك اخزاهُ الله ذلاً وخسراناً واليك شهادةً على هذا ما نقلتهُ الراهبة سيسيليا اذ قالت : كان القدّيس في دير مار سكستوس يناجي الله ليلاً في الكنيسة حسب عادتهِ ولما انتصف الليل اتى الى محلِ النوم وصار يكتب بالقرب من

الصباح · فظهر لهُ قردٌ يتلاعب ويلتوي امامهُ مُريدًا بذلك ان يُشغلهُ عن الكتابة · فعرف عبد الاحد انَّ القرد هو العدوّ الجهنّمي فأشار اليهِ ان يتقدّم وأَمرهُ ان يمسك الشمعة بيدهِ فيُنوّر لهُ · فاضطُرّ اللعين ان يُطيع · وبعد قليلٍ نفدت الشمعةُ وصارت يدهُ تحترق · فأَخذ يُولول ويَبكي بنوعٍ هائلٍ كانّ تلك الحرارة قد زادت النيران الجهنّميّة المعذّب فيها · فاكرههُ القدّيس ان لا يتحرك ولمّا انهى شغلهُ كانت اصبعُ اللّعين قد احترقت حتى نصفها · فضربهُ القدّيس ضربةً سُمع لها رنّةً عظيمة وقال لهُ : « اذهب الآن » · فهرب القرد وغاب وترك في مكانهِ رائحة كريهة انبأَت عن قبحهِ وشناعتهِ

وللقدّيس غرائب اخرى تكشف قناع بغضة الشيطان لهُ وستراها في محلّها · ولكنّهُ لم يكترث لذلك كلّهِ الاّ انّ ما كان يُحزنهُ الحزن الشديد هو خطف ابليس نفوسًا مُتراخية فكان يبكي عليها ويتنهّد ويُصلّي بحرارةٍ عظيمة · فحسنت صلاتهُ هذهِ في عين آلهِ الرحمة فصنع اعظم المعجزات لتنشيط النفوس البارّة ورجوع الخطاة الى التوبة والسيرة الصالحة

ولمّا رأَى البابا هونوريوس الثالث ما لمار عبد الاحد من العلم الغزير والبلاغة السامية والقداسة العجيبة أَيقنَ انّهُ اهلٌ لإِصلاح احوال الراهبات المتبدّدات في أَديرةٍ مختلفةٍ في رومة وضبطهنّ تحت لِواء قانونٍ واحد · فإِصلاحُ راهباتٍ عائشات في حرّيتهنّ لهوَ امرٌ اصعب من تشييد الأَديرة · لانّ مُقيم الأَديرة عليهِ فقط ان يرشد الى سبيل الصلاح والكمال اناسًا قد رذلوا كلّ خيرٍ فانٍ وتمسّكوا بالله وحدهُ · واما الإِصلاح الذي

نحن في صدده فيتطلّب ممّن يباشره ان يضرم اوّلاً قلوبَ بناتٍ فاترات مُتراخيات لا يعرفن حالتهنّ التعيسة ولا ما هنّ عليهِ من خطر الهلاك ثمّ ان يهديهنّ الى طريق الكمال . فأمر الحبر الاعظم مار عبد الاحد ان يقوم بالإصلاح المذكور فقبِل هذا الأمر بفرح وسرور غير انهُ طلب الى الحبر الاعظم ان يعيّن لهُ بعض الكرادلة ليسندوا ضعفهُ في هذهِ المهمّة الخطيرة . وعزم ان ينقل الرهبان من دير مار سكستوس الى مكانٍ آخر ويجمع فيهِ الراهبات ويُلزمهنّ باتّباع قانونِ راهباتِ دير برويّ الدومنيكيّات . فاستحسن الحبر الاعظم رأيَ عبد الاحد وعيّن لهُ ثلثة كرادلة وهم أُغولن (Ugolin) مطران اوستيا (Ostie) واسطيفان الفوسنوفيّ (Etienne de Fausse Neuve) ونيقولا التُسكُلوميّ (Nicolas de Tusculum) ووهبهُ عوض دير مار سكستوس دير القدّيسة سابينا (Ste. Sabine) ليقيم فيهِ الرهبان . وكان هذا الدير على تلٍّ بجانب القصر البابويّ

فزار عبد الاحد كلّ اديرةِ رومة وأَعلَن للراهبات أمر الحبر الاعظم . فأبين التضحية بحرّيتهنّ ودخول ديرٍ لا يستطِعنَ الخروج منهُ . فشقّ ذلك على القدّيس ولكنّ الرب لم يتركهُ . فكان بالقرب من نهر التيبر (le Tibre) ديرٌ يُدعى ترنستيبَر (Transtévère) فيهِ راهباتٌ من أشرف عائلاتِ رومة وأفضلهنّ . وكان في ذلك الدير صورةٌ لمريم العذراء منسوبة الى تصوير مار لوقا ويُحكى عنها انّ البابا سرجيوس الثالث (Sergius III) نقلها الى بيعة لَتران (Latran)

فرجعت هي من تلقاء نفسها الى محلّها الاوّل . فخاض عبدُ الاحد الكلام معهنّ بخصوص أمرِ الحبر الأعظم فحاك فيهنّ كلامُهُ ووعدتهُ الرئيسةُ بالتخلّي عن حقوقها ونذرت هي وراهباتها الطاعةَ لهُ بشرط أن ينقل الصورة الى دير مار سكستوس . وإن رجعت الصورة كالاوّل ينحلّ نذرُهنّ لانّهنّ لا يُرِدن ان يسكنّ الاّ حيث تكون الصورة . فرضي عبد الاحد بهذا الشرط وقبِل نذرَهنّ ومنعهنّ عن الخروج من الدير . فلما سَمِع ذلك اهلُ الراهبات وأقاربُهنّ فار فائرُهم وثاروا على الدير وعنّفوا الراهبات على تركهنّ كنيستهنّ واطاعَتِهنّ رجلًا غريبًا مجهول السيرة والسريرة . فأرخى التعنيف عزمهنّ فندمت اغلبهنّ على ما فعلنَ . وعلِم القدّيس كلَّ ذلك بإلهامٍ الهيّ . فلماّ بلغ الحبرَ الاعظم انّ أغلب الراهبات ندِمنَ على نذرهنّ الطاعة لمار عبد الاحد وأنّهنّ أَبينَ الخضوع لِأَوامرِهِ عزم ان يتّخذ الجفاء سبيلًا الى ردّهنَّ عن غيّهنَّ وعنادهنَّ فسكّن عبدُ الاحد غيظَهُ . وبعدَ ايامٍ قليلة اتى دير ترنستيبر وقدّس فيهِ ووعظ ثمّ قال للراهبات : « قد عرفتُ انكنّ ندمتنَّ على ما قصدتنَّ وأردتنَّ « أَن تحدنَ عن طريق الرب . فمَن منكنَّ الآن تريد ان تبقى امينةً « في وعدِها فلتنذر الطاعة ثانية » . فقامت الرئيسة ومعها سائر الراهبات ونذرنَ لهُ الطاعة . فأَخذ عبد الاحد مفاتيح الدير وأَقام رهبانًا يحرسونهُ ليلًا ونهارًا ومنع الراهبات ان يُكلّمنَ احدًا بدون رقيب . ثمّ أعلنَ لهنّ ان يتهيّأنَ للنذر الاحتفاليّ في دير مار سكستوس وعيّن لذلك الاربعاء الاولى من الصوم الكبير

الفصل الخامس عشر

في تشييد دير القدّيسة سابينة وفي العجائب التي جرت في اثناء ذلك

من المقرّر انّهُ حيثما كان الضعف والضيق فهنالك تجلّت قدرةُ الربّ ورحمتهُ . فانّهُ عزّ اسمهُ لم يترك عبد الاحد يشتغل لِإصلاح نفوس هولاء الراهبات الضعيفات من دون ان يعضدهُ بنوعٍ عجيب في هذا العمل الخطر . فأَجرى على يدهِ اعظم العجائب وأَبهرها . وتلك العجائب الساطعة مكّنت الراهبات في طاعتهِ وجذبت العاصيات اليهِ . ففي صباح الاربعاء الأُولى من الصوم الكبير جاءَت رئيسة دير مريم العذراء المسمّى ترنستيبَر (Transtévère) الى دير مار سكستوس ومعها راهباتُها لِيتخلّين عن حُقوقهنَّ لعبد الاحد وينذرنَ الطاعة علانيةً . فحضر القدّيس ومعهُ الكرادلة الثلاثة مُساعدوهُ . وحينئذٍ صنع اشهر اعجوبة نقرأُها في حياتهِ . فانّهُ بينما كان هو والكرادلة والراهبات مجتمعين في الدير اذا برجلٍ دخل عليهم وهو يبكي وينوح ويلطم راسهُ فسأَلوهُ عن السبب فأَجاب قائلًا : « انّ نابوليون (Napoléon) ابن اخي « السيّد الكردينال اسطيفان القاهُ الجواد على الارض فمات » . فلما سمع الكردينال عمّ المائت هذهِ الكلمات وقع على صدر القديس مَغشيًّا عليهِ . فسندهُ الحاضرون ونهض عبدُ الاحد ورشّ عليهِ ماءً مباركًا وتركهُ بين أَيديهم ومضى حيث كانت جثّةُ الشابِّ المذكور . فنظر اليها واذا هي مهشّمة ومُشوّهة وصائرة جرحًا واحدًا . فأَمر ان يحملوها الى

غرفةٍ مُنفردة ويتركوها هنالِك . ثمّ ذهب مع الكرادلة والرهبان والراهبات ورئيستهنّ الى الموضع الذي نُصب فيهِ المذبح فأقام القدّاس والدموع تسيل من عينيهِ . وعندما رفع الجسد الالهيّ على يديهِ ارتفع هو ايضاً عن الارض نحو ذراع . فشخصت اليهِ عيونُ الجميع وتحيّروا مُنذهلين . وبعد نهاية القدّاس رجع هو والكرادلة وكلُّ من حضر الى المكان الذي كان فيهِ جسد القتيل . ولما وصل اليهِ رتّب اعضاءهُ بيدهِ المباركة ثمّ خرَّ على الارض مُمتدًّا باسطاً يديهِ بشكل صليب وشرع يُصلّي باكيًا . وصنع ذلك ثلث مرّات وكلَّ مرة قام ولمس وجهَ الميت وأعضاءهُ مركِبًا كُلاًّ في محلّهِ . واذ نهض في المرّة الأخيرة رسم إشارة الصليب على الميت ووقف عند راسهِ باسطاً يديهِ نحو السماء فارتفع وقتئذٍ عن الارض قدر ذراع بل اكثر وقال بصوتٍ عالٍ : « ايّها الشاب نابوليون لك اقول « قُم باسم يسوع مخلّصنا » . فقام الشابّ لساعتهِ صحيحاً سالماً أمام ذلك المحفل العظيم وقال للطوباويّ عبد الاحد : « يا أبي اعطِني طعاماً » . فبعد ان اكل ردّهُ الى عمّهِ الكردينال فرحاً ليس فيهِ اثرُ جرح . وكان ذلك نحو العصر وكان قد بقيَ الشابّ ميتاً منذ الصباح الى تلك الساعة

وبعد هذهِ الاعجوبة بثلاثة ايّام اي في الاحد الاوّل من الصوم دخلت دير مار سكستوس راهباتُ دير ترَنستيبرَ وأُخريات من دير القدّيسة بيبيانة (Ste. Bibiane) وغيرهنّ عالميّات انجذبنَ كلّهنَّ الى عبد الاحد لاجل قداستهِ والعجائب التي كان اللهُ يُجريها على يدهِ . وكنّ حينئذٍ ستّاً واربعين راهبة وبينهنّ كانت الراهبة سيسيليا وهي التي

اخبرتنا عن أغلب العجائب التي صنعها القدّيس مدّة اقامتهِ في رومة . وكانت الراهبة سيسيليا ذات سيرةٍ صالحة ومن شريفاتِ رومة وترهّبت في دير ترنستيبر وهي سبقت رفيقاتها بل رئيستها نفسها واقتبلت اسكيم الرهبنة الدومنيكيّة على عتبة الدير ونذرت المرّة الثالثة الطاعة لعبد الاحد فتبعتها الرئيسة ومعها سائر الراهبات ونذرنَ . ومساء ذلك اليوم نفسهِ ذهب القدّيس لينقل صورة مريم العذراء الى دير مار سكستوس فحملها على كتفهِ وحواليهِ كان الكردينالان اسطيفان ونيقولا ومؤمنون كثيرون وكان الجمع يمشون حفاةً . وامّا الراهبات فكنَّ ينتظرنَ الصورة على باب الدير وهنَّ حافيات ومُصلّيات فاقتبلنها بفرحٍ لا مزيد عليهِ وبقيت الصورة في دير مار سكستوس فاستمررن في طاعة مار عبد الاحد . فرأَّس عليهنّ راهبةً من دير برويّ دعاها هي واخوات أُخريات ليُصلِحن بمثلهنّ احوال اولئك الراهبات

ومذ ذلك اليوم صار القدّيس يقصد يوميًّا دير مار سكستوس ليرشد الراهبات ويفسّر لهنَّ قوانينَ الرهبنة . وكان الرهبان ايضًا يحضرون عظاتهِ . فلما رأى اللعين الخير الناجم عن ذلك لم يدع وسيلةً الاّ استعملها لكي يُبلبل الرهبان والراهبات في تلك المفاوضات الروحيّة . وكتبت الراهبة سيسيليا بخصوص ذلك قالت : « في الاحد الثاني من الصوم « الأَربعينيّ الذي فيهِ يُقرأ قصّة المرأة الكنعانيّة أُلقيت خطبة احتفاليّة « في دير مار سكستوس . والتأم اذ ذاك جمٌّ غفير في الكنيسة . وكان « الطوباويّ عبد الاحد واقفًا عند الحاجز الفاصل بين الرهبان والراهبات

« كي يتمكّن الجميع من مُشاهدتهِ واستماع كلامهِ . فبينما كان ينذر
« واعظاً اذا بامرأة فيها شيطان قَطَعَت كلامهُ وصرخت عليهِ قائلةً : ايها
« الشقيّ ايها الشقيّ لقد خطفتَ منّي بمكائدكَ اربعة اشخاص كنتُ قد
« ملكتهم . نعم كنتُ قد ملكتهم . وانت خطفتهم منّي — . فضجّ
« الشعب لإبطال العِظة فزجر الاب الطوباويّ الشيطان وصاح بهِ
« المرّة بعد المرّة : — اسكت اصمت — . فأجاب الشيطان بفم تلك
« المرأة المعتراة بهِ : — ان تطردنا من هنا فلقد امتلكنا هذهِ المرأة ونحن
« سبعة دخلنا فيها بنوعٍ كذا وكذا — . وأخذ كلٌّ من الشياطين يقصّ
« بصوتٍ مختلف عن صوت غيرهِ كيفيّةَ دخولهِ فيها . فلمّا رأى رجلُ الله
« انّ الاضطراب لا يزال يتزايد رسم اشارة الصليب على المصابة المسكينة
« وهو يقول : — آمركم باسم يسوع المسيح ربّنا ان تخرجوا من هذهِ
« المرأة ولا تضرّوها فيما بعد بشيء البتّة — . فتشنّجت اعضاؤها تشنّجاً
« مهولاً وتقيّأت فحماً ممزوجاً بالدم فظنّها الحاضرون قد ماتت . وامّا
« القدّيس فأمر ان تُحمَل في بيتٍ خارج عن الكنيسة وان يُعتنى بها
« حتى شفائها . ودعاها الاخت حبيبة . وبعد زمن دخلت الرهبنة شكراً لله
« على ما خوّلها من النعم وعاشت بكمال الصحّة ممارسةً الاعمال الصالحة »

وكان مرّةً أُخرى مار عبد الاحد يُلقي خطبةً على الراهبات فظهر الشيطان بشكل عصفور يتطاير تارةً فوق رأس الراهبات وأُخرى قريباً من الارض فأحسّ عبد الاحد بدسيسة العدو الجهنّمي وقال للراهبة سيسيليا : « قومي وامسكي هذا العصفور وَأْتيني بهِ » . فمسكتهُ

واعطته اياهُ . فصار ينتفهُ وهو قائل : « ايها العدوّ ما بالك تاتي وتقلق « خادمات الله» . وبعد ان نتفهُ ضرب بهِ الارض قائلًا :ــ « اذهب يا عدوّ « البشر . طِر الآن إن استطعتَ . فسمعنا ضوضاء عظيمة ولكنك لن « تضرّنا البتة » . فوثب العصفورُ الى قنديل موقد امام مذبح مريم العذراء وقَلَبهُ بضوضاء عظيمة . لكنّهُ لم ينطفِ ولا وقع منهُ نقطة واحدة من الزيت بل لم تسقط ذرّة واحدة من النخالة الموجودة في قعر الوعاء الذي فيهِ القنديل . وبقي القنديل معلّقًا مقلوبًا الى ان نصبهُ القدّيس ثمّ تتبّع خطبتهُ

ويومًا آخر كان عبد الاحد يعظ الرهبان والراهبات بالقرب من سواقي ماء . وكان موضوع خطابهِ مكايد العدوّ الجهنّمي فظهر ابليس بشكل وَرَلٍ مُخيف لهُ راسان وأخذ يركض على حافة الساقية ويتهدّد الراهبات بالوثوب عليهنّ . فعرف القدّيس حيلة العدوّ وسكّن روع الراهبات الفزعات واتّجهَ الى ابليس وقال لهُ : « يا عدوّ الجنس البشريّ « آمرك ان تلقي نفسك في هذا الماء » . ففعل الشيطان وتوارى

وربّما ظنّ القارىء انّ هذهِ مبالغات لا تُصدّق ولكن فليعلم ان كلّ ما كتبت الراهبة سيسيليا عن القدّيس قد رأتهُ بعينها او سمعتهُ من الرهبان الذين رأوهُ بانفسهم . وشهد الاب تيرّي دابُلدا والراهبة انجيليكا (S^r^. Angélique) انّ نقاوة سيرة الراهبة سيسيليا هي اعظم شاهدٍ لصحّة قولها . وقد حدث مثل هذهِ الوقائع للرهبان الاوّلين كمار انطونيوس ومار باخوميوس وكثير غيرهما . فلا عجبَ من الحرب العوان التي كان يثيرها ابليس على مار عبد الاحد واولادهِ . فانّ

مار عبد الاحد لم يزل ينشل من مخاليبهِ الفرائس التي اختطفها · وحكت ايضاً الراهبة سيسيليا قالت : « كان الاب الوقور عبد الاحد قد اعتاد « قضاء النهار كلّهُ في اكتساب النفوس بعظاتهِ المتواترة وسماعهِ « الاعترافات وباعمالٍ أُخرى خيريّة · وعند المساء كان يقصد الراهبات « ويلقي عليهنّ بحضور الرهبان خطبة في شرح الفرائض الرهبانيّة · ولم « يكن لهنّ مرشدٌ غيرهُ · وحدث ذات مساء انّهُ تأَخَّر عن المجيء في « الوقت المألوف فظنّت الراهبات انّهُ لن يأْتي فخرجنَ من المصلّى « ودخلنَ قلاليهنَّ وإذا بالرهبان يدقّون الجرس المعلِن لهنَّ قدوم الاب « الطوباويّ · فأَسرعنَ في الذهاب الى الكنيسة وفتحنَ الحاجز · « فوجدنَهُ جالساً مع الاخوة ينتظرهنَّ فقال لهنَّ : — بناتي إني آتٍ « من الصيد وقد أتحفني الربّ بسمكة كبيرة — · قال هذا عن الاخ « غوديون (Gaudion) الذي قبلهُ في الرهبانيّة وكان من مدينة رومة « وحيداً لِأَهلِهِ وسيّداً جزيل الثروة · ثمّ خاطبهنَّ طويلًا وافعمهنَّ « سلوانًا. ولمّا أنهى خطابهُ قال: — انَّ الربّ يريد ان أَنطلق الى دير القدّيسة « ساينة — · فطفق الرهبان والراهبات بأَجمعهم يفرغون وسعهم في ايقافهِ « وابقائهِ قائلين : — ايّها الأَب القدّيس لقَد فات الوقت وانتصف « الليل فلا يمكنك الانطلاق — · امّا هو فلم يُذعن لتوسّلاتهم فقال : — « انّ الرب يريد ان انطلق لا محالة · فهو يرسل ملاكهُ معنا — · ثمّ أَخذ « رئيس الرهبان الاخ تنكريد (Tancrède) ورئيس الراهبات « أُدون (Odon) وذهب وايّاهما · فلمّا بلغوا باب الدير وارادوا الخروج

« لاقاهم (كما قال القدّيس) شابٌّ بديع الجمال في يدهِ عصاً وهو
« يبتغي السير . فمشى في مقدّمهم والقدّيس عبد الاحد في مُؤخّرهم الى
« ان انتهوا الى باب كنيسة القدّيسة سابينة فوجدوهُ مُغلقاً . فتوكّأ
« الشابّ على جانبٍ من الباب ففُتح حالاً فدخل هو اوّلاً ثمّ الراهبان
« ثمّ مار عبد الاحد . وبعد ذلك خرج الشابّ فأُغلق الباب ثانيةً . فقال
« الاخُ تنكريد للقدّيس عبد الاحد : ـ يا أبانا القدّيس مَن هو ذاك
« الشابّ الذي رافقنا ـ . فاجابهُ : ـ يا ابني هو ملاكٌ أرسلهُ الربّ
« ليحرسنا ـ . وقُرع وقتئذٍ ناقوس صلاة الليل فنزل الرهبان الى الخورس
« واخذهم الاندهاش عند مشاهدتهم هنالك الطوباويّ عبد الاحد
« ورفيقيهِ وقد دخلوا والابواب مُغلقة . وكان في الدير مبتدىء رومانيّ
« حديث السن اسمهُ الاخ يعقوب . هذا زاحمتهُ تجربة شديدة فعزم ان
« يخرج من الرهبانيّة بعد صلاة الليل عندما تُفتح ابواب الكنيسة .
« فعرف ذلك عبد الاحد بإلهامٍ آلهيّ . فاستحضر المبتدىء عند نهاية
« الصلوة وحرّضهُ بحلم ان لا يذعن لدسائس العدوّ بل ان يثابر بشجاعةٍ
« على خدمة المسيح . فلم تؤثّر فيهِ مشورات القدّيس وتوسّلاتهُ لكن قام
« ونزع عنهُ الثياب الرهبانيّة وقال لهُ انهُ قد عزم بتاتاً ان يخرج من
« الرهبنة . فحنّ عليهِ القدّيس وقال : ـ يا ابني انتظر قليلاً وبعدهُ افعل
« ما في خاطرك ـ . وخرّ على الارض وشرع يصلّي . وهذهِ الصلوة اظهرت
« عظمة استحقاقاتهِ عند الله والسّهولة العجيبة التي بها كان يستطيع ان
« ينال مُبتغاهُ من الرحمة الآلهيّة . على انهُ لم ينتهِ من صلاتهِ حتى ارتمى

« الشابّ على قدميهِ وعيناهُ مغرورقتان بالدموع وتضرّع اليهِ ان يردّ لهُ
« الثياب التي كان قد ألقاها عنهُ في شدّة التجربة واعدًا بانّهُ لن يعود
« يخرج من الرهبنة ابدًا . فألبسهُ الاب الفاضل الثياب مُحرِّضًا اياهُ على
« الثبات الدائم على خدمة يسوع . الامر الذي جرى بالعمل لان هذا
« الاخ عاش زمانًا طويلًا في الرهبنة وأمسى قدوة صالحة للآخرين . وفي الغد
« رجع القدّيس عبد الاحد مع رفيقيهِ الى دير مار سكستوس فأخبر الرهبانُ
« الراهبةَ سيسيليا والراهباتِ الأُخريات بما حدث . وثبّت القدّيس قولهم
« قائلًا : يا بناتي انّ عدوّ الله اراد خطف غنمة ولكنّ الربّ نشلها من يديهِ »

امّا ابليس فاذ عاين قوّة صلاة عبد الاحد واستحقاقاتهِ صمّم على قتلهِ . ففاجأهُ وهو يصلّي ليلًا في كنيسة القدّيسة سابينة وأخذ حجرًا كبيرًا ورمى بهِ راسَهُ . فمرّ الحجر بقرب راس القدّيس بل اصاب قبّعتهُ ووقع عند رجليهِ . امّا هو فلم يكترث لذلك ولا تحرّك من مكانهِ . وهذا الحجر موجود الى يومنا هذا في دير القدّيسة سابينة

وكان مار عبد الاحد مع صلواتهِ المتواصلة وعظاتهِ المتواترة وتاسيسهِ الاديرة وتثقيفهِ الرهبان والراهبات يؤدّي ايضًا اعمال الرحمة للقريب . فكان يُسلّي المرضى ويُزوّدهم بالاسرار المقدّسة او يشفيهم من امراضهم . من ذلك انّهُ كان يزور راهبات ناسكات انفردن لينصببن على الصلوة والتامّل . ومن جملتهنّ لوسيّة الحبيسة وكانت مقيمة بالقرب من كنيسة القدّيسة انستازية (Ste. Anastasie) وقد اعترى ذراعها مرض مُؤلم افسد لحمها وخرقهُ فظهر العظم . فبارك عليها القدّيس فشُفيت لساعتها

الفصل السادس عشر

في حماية مريم العذراء لرهبنة الاخوة الواعظين

انّ مريم البتول كانت بعد ابنها الالهيّ اول مسند لمار عبد الاحد في اشغالهِ الشاقّة واتعابهِ المضنية وآمن حصنٍ في الأخطار والنوائب لهُ ولرهبانهِ بأسرهم · فكان كلّما دهمتهُ رزيّة او احاقت بهِ كارثة يلجأ اليها فتبدّد ظلمات كربهِ وتبلّغهُ المنى · فانّها تبارك اسمها كانت تخصّهُ بحبّ اميّ وتظهر لهُ بلطفٍ ورقّة عجيبين · وفي حياتهِ كثير من الشواهد البيّنة الناطقة بذلك منها ما جرى لهُ وهو في بلاد لنكدوك (Le Languedoc) حين ضاقت بهِ النفس لدى مشاهدتهِ اتعابهُ تذهب دون فائدة · فانّ مريم العذراء ظهرت لهُ ومدّت لهُ ذراع المعونة وقلّدتهُ سلاح الورديّة آمرةً ايّاهُ بإنذار الناس وتعليمهم مضامينها ونوعيّة تلاوتها · وأجرى الربُّ على يدهِ بشفاعة سلطانة الورديّة المقدّسة آياتٍ باهرة لا تُحصى · وأبانت العذراء ايضًا محبّتها ولطفها لعبد الاحد حين كان في رومة بعد وفاة البابا انوكنتيوس الثالث اذ كادت آمالهُ ان تغور في بحر الخيبة والفشل فظهرت لهُ وشجّعتهُ وأعلمتهُ جليًّا انّهُ مدعوٌّ الى ترميم بنيان العالم المتهدّم · ثمّ أرتهُ ابنها مستشيطًا غيظًا على الورى رغمًا عن صلواتها وابتهالاتها المتواصلة · وعند ذلك قدّمت اليهِ مار عبد الاحد نفسَهُ ومار فرنسيس فهدأ غضب يسوع وانقلب عدلهُ رحمةً · وفضلًا عن هذهِ الاشارات الحبيّة من قبل العذراء الحنون رأى كثيرٌ من

العبّاد الأتقياء رُؤًى أنبأت عن حمايتها لرهبنة الاخوة الواعظين . حتى طفق المؤرّخون يلقبونها صوابيًّا بمؤسّسة هذهِ الطغمة الرسليّة . إذ انّ من الفضلاء مَن رآها تُنشيء رهبنةً للإنذار . وغيرهم شهدوها تشمل الاخوة الواعظين بكنف حماها . وبعضهم عاينوها تارةً مُعينةً لمار عبد الاحد موضوعًا لوعظهِ . وطورًا ملقّنةً احد اولادهِ ما يجب عليهِ ان يقولهُ في خطبتهِ . وآونةً فاتحةً هي بنفسها كتابًا لقراءة الارشاد . غير انّها حتى ذلك الوقت كانت قد اقتصرت على اظهار حنوّها الوالديّ لعبد الاحد ونزرٍ من رفاقهِ . وعلاوةً على ذلك رامت ان تعقد معهم ميثاقًا دائمًا وذلك بتوشيحها ايّاهم بثوب جعلهم قومًا مفرزًا ممتازًا . فلبسوا هذا الثوب ويلبسونهُ مدّة حياتهم كلّها ولا يُودَعون اللّحد إلاّ وعليهم هذا الشعار الشريف . وهاك بيان اعطاء مريم العذراء الثوبَ لاولادها الدومنيكيّين :

في غضون سنة ١٢١٨ قدم رومة ملفانٌ طائر الشهرة يُدعى ريجينلدس (Réginald) عازمًا ان يرحل من هناك الى القدس ليتشرّف بزيارة قبر فادي العالم . وكانت بغيتهُ من هذهِ السياحة التاهّب للسلوك في منهج جديد طِبقًا لعواطف مقدّسة ساقتهُ الى تخلية العالم والانقطاع الى العيشة الفقريّة والتفرّغ للتبشير والانذار بالانجيل . ولم يكن بعد حتى ذلك الوقت قد طرأ سمعَهُ خبرُ انشاء رهبنةٍ شانها الوعظ والتعليم . فاذ كان ذات يوم يُفاوض في خلوةٍ احدَ الكرادلة باح لهُ في سياق الكلام بسرّ قلبهِ . فقال لهُ الكردينال : « قد أُنشيء حديثًا رهبنة غايتها الانذار

« والزهد وها انّ مؤسسها مقيمٌ الآن في رومة ساعياً في الإنذار بكلام الله » .
فاهتشّ ريجينلدس لدى سماعهِ هذا الخبر وقصد عبد الاحد . فطار عقلهُ
عجباً واندهالاً من دماثة اخلاقهِ وعذوبةِ كلامهِ . فعزم حينئذٍ الانخراط
في سلك الاخوة الواعظين . لكنّ العوائق آفة كلّ عملٍ مبرورٍ لم تعتم
أن حالت دون مرامهِ . فانّهُ مرض مرضاً عضالاً يئست من شفائهِ الأطبّاء .
فاغتمّ عبد الاحد وطفق يصلّي الى الله ويتوسّل اليهِ ان لا يحرمهُ هذا
الابن العزيز على قلبهِ وان يمنّ عليهِ بالشفاء زمناً ولو قصيراً . وفي اثناء
صلاتهِ ظهرت مريم العذراء وبرفقتها قدّيستان لريجينلدس وقد أذابتهُ
الحمّى لشدّتها . فقالت لهُ مريم الامّ الحنون : « سلني ما طاب لخاطرك
« فاعطيك » . فاحتار من ذلك فقالت لهُ إحدى القدّيستين ان يطلب
ما يسرّ بهِ خاطر البتول الكلّية الطهارة . فأذعن لذلك . فرفعت مريم
العذراء يدها النقيّة ومسحت عينيهِ واذنيهِ ومنخريهِ ويديهِ وحقويهِ
ورجليهِ وهي تتلفّظ بعبارات تُلائم كلاًّ من المسحات . وممّا قالتهُ عند
مسح حقويهِ ما يلي : « ليُشدّ حقواكَ بزنّار العفاف » . وعند دهنها
رجليهِ قالت : « أمسح رجليك لِتُنذر بانجيل السلام » . وبعد ذلك أرتهُ
ثياباً مختلفة عن الثياب التي كان يلبسها وقتئذٍ الاخوة الواعظون وقالت
لهُ : « هذهِ هي ثياب رهبنتكَ » . ثمّ غابت عنهُ واذا بهِ قد نال الشفاء
التامّ ولم يعد يشعر قط بتجربة ضد العفّة . ولمّا كان الغد افتقدهُ عبد
الاحد وسُرَّ بشفائهِ وشكرا كلاهما الله وامّهُ البتول على ما خوّلاهما من
الاحسان . وغب مضي ثلاثة ايام تراءت البتول ايضاً لريجينلدس

بحضور مار عبد الاحد واحد الرهبان المضيفين (F F. Hospitaliers)
ومسحته ثانيةً امامهما . وهكذا ارادت ان تُنجز هذا العمل وتؤيّده
بحضر شهود على انّ ريجينلدس لم يكن في هذا الامر سوى نائب رهبانيّة
الاخوة الواعظين . وفي شخصهِ قد ضربت سلطانة الورديّة لهذهِ الجمعيّة
عهدًا لا يزول الآ مع زوالها . فالورديّة كانت العلامة الاولى لهذا الميثاق
إذ هي كجوهرة ثمينة خلعتها البتول على منشيء الرهبنة حين بروزها الى
حيّز الوجود . امّا مسحة ريجينلدس فهي إشارة الى انّ مريم قد شملت
اعضاء هذهِ الرهبنة بحمايتها الخاصّة . فهي تطهر كلَّ من قصد الانضمام
اليها فتكسيهِ بلباسٍ جديد هو علامة التوبة والبرارة . وهذا اللباس
مركّب من ثوب ابيض وعليهِ يتدلّى اسكيم أبيض قائم مقام القميص
الكنَسي الذي كانوا يلبسونهُ قبلًا . وفوقهُ عباءة وقبّعة سوداوان . ومنذ
ذلك الحين ضاعفت العذراء عواطف حنوّها على الاخوة الواعظين وبالغت
في الاهتمام بهم . ودونك ما اخبرت الراهبة سيسيليا في هذا الصدد
فانّهُ يوضّح جليًّا انّ مريم العذراء تودُّ غاية المودّة عبد الاحد واولادَهُ
وتُريد من خدّامها ان يحافظوا على الاحتشام التامّ :

« بقي مار عبد الاحد ذات ليلةٍ في الكنيسة يصلّي حتى نصف
« الليل ثمّ خرج والرهبان كلّهم نائمون في مراقدهم فدخل الدهاليز
« الكائنة فيهِ قلاليهم . ثمّ تنحى الى إحدى الزوايا هناك وانصبّ
« ثانية على الصلوة . وبينما كان مُسرحًا الحاظهُ في اطراف الدهاليز التي
« قبالتهُ شهد ثلث نساء احداهنّ سيّدة عجيبة قائمة في الوسط وعليها

« سماء البهاء والجلال . والأخرى حاملة اناء الماء المبارك . والاخرى ماسكةً
« منضحة وكانت تقدّمها للسيّدة العجيبة فترش بها الرهبان راسمةً عليهم
« إشارة الصليب . غير انها عند بلوغها قرب احد الرهبان مرّت من قدامهِ
« دون ان تمنحهُ بركتها . امّا عبد الاحد فلاحظ ذلك وعرف الراهب
« ثمّ تقدّم الى السيّدة المانحة البركات وكانت حينئذٍ قد وصلت الى
« وسط الدهليز حيث السراج موقد . فخرّ على ركبتيهِ أمامها ومع انّهُ
« عرفها سألها من هي (١) فاجابتهُ قائلةً : — انا هي التي تستجيرون بحماها
« كلّ مساء . وعند قولكم : فاصغي اذًا الينا يا شفيعتنا : أجثو أمام ابني
« الإلهيّ وأتضرّع اليهِ في شأن هذهِ الرهبنة — . فسألها مار عبد الاحد
« عن الشابّتين رفيقتيها . فاجابتهُ العذراء الطوباويّة قائلةً : — الواحدة
« هي سيسيليا والأُخرى كاترينا — . ثمّ استفسرها عمّا حملها على العبور أمام
« أحدِ الرهبان دون ان تباركهُ . فقالت لهُ : — لأنّهُ كان على هيئةٍ
« مُخلّة بالاحتشام — . وبعد انتهائها من السير ومباركة بقيّة الرهبان غابت .
« امّا مار عبد الاحد فعاد الى محلّهِ وواصل صلاتهُ فاختطف حالاً بالروح
« الى السماء وهناك حظي برؤيةِ الربّ وعن يمينهِ كانت جالسةً العذراء
« الكليّة الطوبى . ورآها مُلتفّةً بعباءة ياقوتيّة اللون . ثمّ التفت حواليهِ فرأى
« جمًّا غفيرًا من كلّ اصناف الرهبان وليس بينهم واحد من رهبانهِ . فأخذت

(١) « ولا يخفى انّ في ذلك الزمان كان الاخوة الواعظون والراهبات الدومنيكيات
« في اديرة رومة يتلون راكعين بعد السنار هذه الصلوة اللطيفة والخشوعية : السلام
« عليك ايتها الملكة امّ الرحمة الخ »

« العبرات تنسجم من عينيهِ ولم يعُد يجسر على التقرّب من الله وامّهِ
« القدّوسة. فأشارت اليهِ بالمثول امامها ولكنّهُ لم يجترىء على التقدّم حتى
« أمرهُ بذلك الربّ عينهُ. فأقبل وجثا وهو باكٍ بكاء مرًّا. فأمرهُ
« الربّ بالقيام ثمّ قال: — ما لك تذرف الدموع — . فأجاب: أبكي
« لانّي أُشاهد هنا أُناسًا من كلّ الرهبنات وأمّا من رهبنتي فلا أرى
« أحدًا — . فقال لهُ الربّ: — أترغب في رؤية رهبنتك — . فأجاب
« مرتجفًا: — نعم يا ربّ — . فوضع الربّ يدهُ على عاتق امّهِ مريم وقال
« لعبد الاحد: — لقد سلّمتُ رهبنتك الى والدتي — . ثمّ سألهُ قائلًا: —
« أتريد بَتاتًا ان تُشاهد رهبنتك — . فأجابهُ عبد الاحد: — نعم يا
« ربّ — . ففتحت العذراء حينئذٍ العباءة التي كانت ملتفّةً بها وبسطتها
« امام القدّيس فامتدّت في الوطن السماويّ. فرأى تحتها عددًا وافرًا من
« أُخوتهِ واولادهِ. فخرّ ساجدًا وأسدى الشكر للربّ وامّهِ الطوباويّة.
« فغابت الرؤيا وعاد هو الى حسّهِ وذهب فقرع ناقوس صلاة الليل.
« وبعد انتهاء الصلوة دعا الرهبان للاجتماع وألقى عليهم خطبة فيها حرّضهم
« بنوعٍ خاصّ على تأدية الحمد والوقار للامّ الالهيّة وقصّ عليهم الرؤيا
« المنوّه بها. وبعد الاجتماع اختلى بذلك الاخ الذي امتنعت العذراء
« عن منحهِ بركتها وسألهُ بغايةِ اللطافة هل أخفى عليهِ خطيّة سرّيّة.
« هذا لانّ الاخ المذكور كان قد اعترف للقدّيس بخطاياهُ اعترافًا عامًّا.
« فأجاب قائلًا: — ايّها الاب القدّيس انّ ضميري لا يوبّخني على شيء
« سوى هذا وهو انّي عند انتباهي هذهِ الليلة رأيتني مكشوفًا »

ثمّ انّ القدّيس عينهُ قصّ هذهِ الرؤيا على الراهبة سيسيليا وسائر راهبات دير القدّيس سكستوس كأنّها قد جرت لواحد آخر . ولكنّ الرهبان الذين كانوا حاضرين معهُ أشاروا الى الراهبات انها قد حدثت لهُ شخصيًّا . وهذا ما حمل مار عبد الاحد أنْ يامر جميع الرهبان أينما وُجدوا بالرقاد متنطّقين ولابسين جواربهم



الفصل السابع عشر

في زيارة القدّيس رهبنتهُ

بعد ان تتبّع رِيمُندس السادس (Raymond VI) الحرب ضدّ الكاثوليك وداهمتهُ من لدنهم كسرات عديدة أَسعدهُ الحظّ اخيرًا فغلبهم وبدّد شملهم فاضطُرّوا على الإِدبار والالتجاء الى بلاد لنكدوك. وامّا اميرهم ذاك البطل الصنديد سيمون المنفوريّ فباد في حومة القتال مرشوقًا بحجرٍ في هامتهِ ومات ميتة مقدّسة صارت مثالاً لكلّ مناضلٍ مسيحيّ اهلٍ بهذا الاسم. وما عتمت أَن طار خبرها الى صديقهِ المخلص مار عبد الاحد فحزن عليهِ وعوّل على السفر قاصدًا ان يفتقد رهبنتهُ جمعاء سيّما ليقف هو بذاتهِ على حالة الاديرة الكائنة في بلاد لنكدوك. فشدّ راجلًا تلك السنة عينها في فصل الخريف واصطحب معهُ بعضًا من الرهبان وكان من جملتهم الاخ البرتُس (F. Albert) من رهبنة الاخوة الصغار. فبينما هم سائرون اذا بكلبٍ وثب على الاخ البرتُس فخرّق رداءهُ. فأَخذ مار عبد الاحد خرق الرداء وضمّها الى بعضها ثمّ طلاها بقليل من الوحل فعادت الى اصلها. فاندهل الاخ البرتُس ورفاقهُ من ذلك وهو الذي أَخبر بهذهِ العجيبة وبالآتية وهي انّهم في مدّة مسيرهم نزلوا في فندقٍ بلمبارديا (La Lombardie) ومدّة إِقامتهم هناك لم يذق أحدهم لحمًا. فعند ما رأت صاحبة الفندق ذلك خِيل لها انّ القدّيس لبُخلهِ وحرصهِ على المال قد صدّهم عن الاكل. فهاج فيها الغيظ والحنق وصارت تقذفهُ

هو ورفاقهُ باللعنات والشتائم فاحتمل ذلك بصبرٍ عجيب وشرع ينصحها بلطيف الكلام لتعدل عن غيّها لكنّها لم تنتفع شيئًا بل كلّما ازداد في نصحها وردْعها تراكمت عليهِ المسبّات والاهانات . واذ ذاك تيقّن انها لا تستفيد لا من السكوت ولا من الكلام فأشار اليها بحلمهِ وهيبتهِ قائلًا : « اسألُ الربّ ان يبكِم فاكِ فتعلمين انهُ ينبغي لكِ ان تضيفي « خدّام الله بمحبّةٍ اكرامًا لسيّدهم عزّ وجلّ » . فما كان القدّيس ينهي كلامهُ الاّ واخرست المرأة . وبعد ثمانية اشهر لدى عودتهِ من اسبانيا اجتاز بذلك المحلّ فعرفتهُ الخرساء فأسرعت وانطرحت عند قدميهِ سافحةً الدموع ومبتغية الشفاء . فرقّت احشاء رجل الله على بؤسها فرسم عليها علامةَ الصليب فبرئت في الحال

وفي سفرهِ هذا جاز جبال الب (Les Alpes) وزار ديري تولوزا وبرويّ ثمّ بلغ مدينة سيغوفيا (Ségovie) وقد قرب عيد الميلاد سنة ١٢١٨ فاستضاف امرأةً خاملةً مسكينة . فما عتمت ان عرفت حقّ المعرفة الكنز الثمين المكنون في منزلها . فاخذت تتحفهُ بما فاق من الاجلال والاعتبار . وذات يوم لَحِظتهُ ينتزع مِسحهُ الممزّق ليلبس غيرهُ فأذهلها ذلك وأخذت المسح العتيق وأخفتْهُ في صندوقٍ لا تضع فيهِ الاّ اثمن امتعتها . وفي أحد الايام شبّت في بيتها نارٌ متأجّجة فأكلت البيت وما حواهُ وعند عَودتِها لم تجد سالمًا الاّ الصندوق المحفوظ فيهِ مسح القدّيس مع ما كان ثمينًا وعزيزًا لديها

وفي غضون اقامة القدّيس في مدينة سيغوفيا شاء الله عزّ وجل

ان يُعلن فضلهُ ويشهرهُ . وذلك أنهُ في تلك السنة كانت الامطار نادرة فيبست الزروع وأمحلت الارض. فصار الجميع يرفعون أَلحاظهم واصواتهم الى السماء طالبين ومؤمّلين الغوث والعون من ابي المراحم . وفي احد الايّام خرج السكّان قاطبة الى ساحة رحبةٍ في ظاهر المدينة لإقامة صلوة جهريّة وكان مار عبد الاحد بينهم . واذ رأى على جباههم علائم الحزن والقلق أَقدم على وعظهم وكان الجوّ صافياً تنيرهُ اشعّة الشمس الساطعة . فقال لهم : « اخوتي ايّاكم من الخوف والجزَع . ثقوا بمراحم الله فانهُ « تعالى مزمع في هذا اليوم عينهِ ان يسقي اراضيكم بمياهٍ غزيرة فينقلب « حزنكم الى فرح » . وبينما كان تابعاً سياق الكلام اذا غمامةٌ كثيفة جلّلت السماء فأَظلمت الارض وصارت الامطار تتهاطل وتجري كالسيول . ولِكثرتها وغزارتها الجأت الخطيب على السكوت وبدّدت ذلك الجمّ الغفير

ويوماً آخر التأم اكابر المدينة والوجوهُ فبعد تلاوة براءة الملك طفق عبد الاحد ينذر بكلام الله . واذا بأَحد الأُمراء أَظهر اشارات التذمّر وقال : « أَوَيُريد هذا المِهذار ان يمسكنا النهار كلّهُ ويحرمنا « تناول الطعام » . ثمّ عمد الى حصانهِ وتهيّأ للرحيل . وبينما هو ذاهب قال لهُ القدّيس « ايّها الأمير انّك ذاهب الآن ولكن قبل تمام هذهِ « السنة لن يعود حصانك يحملك . فتموت رغماً عن سَعيِك في الهرب « والالتجاء الى الحصن الذي تشيّدهُ في دارك » . وتمّ الامر طبقاً لنبوّة القدّيس اذ انّ الامير المذكور بينما كان يوماً هارباً الى بيتهِ ساعياً في

التملّص من الموت قُتل في عين المحلّ الذي فيهِ ركب حصانهُ حين سمع نبوّة القدّيس

وكان عبد الاحد قد ألفى في جواري مدينة سيغوفيا مغارةً مهجورةً فصار ينفرد فيها ليلًا لا رغبةً في الاستراحة ولكن طلبًا للتهجّد وممارسة اعمال التوبة · ولسموّ فضائلهِ العجيبة ومواعظهِ المُتقَنة السديدة والخوارق الباهرة التي كان اللهُ يجترحها على يدهِ صار الناس يتقاطرون افواجًا افواجًا للتتلمذ لهُ · فشيّد ديرًا على مَقربةٍ من تلك المغارة التي فاقت قدرًا وتشرّفت بالنعم العلويّة لكثرة ما كان قدّيسنا المجيد يُجري فيها من الاعمال المبرورة والتقشّفات والصلوات والإماتات الصارمة حتى انهُ بعد ذلك بأجيال كان يشاهَد فيها اثر الدم الذي سال من جسدهِ حين جلدهِ نفسهُ بالسياط

ثمّ انهُ غادر سيغوفيا وتوجّه الى مدينة مدريد (Madrid) فرأى الاب كُريولَن (Coriolan) قد ابتنى ديرًا أسكن فيهِ عدّة من الراهبات · ولم يبرح مار عبد الاحد من بذل الجدّ والجهد في تثقيفهنّ وتخريجهنّ في الكمال المسيحيّ والعيشة الرهبانيّة ودونك برهانًا شافيًا على اعتنائهِ بهنّ من رسالةٍ بعث بها اليهنّ في هذا الشان وهي :

« من الاخ عبد الاحد رئيس الاخوة الواعظين الى الامّ الرئيسة
« وبقيّة راهبات دير مدريد السلام وحسن التدرّب في سبيل الحيوة
« بنعمة الله ربّنا · انّنا نفرح ونُسرّ ونسدي الحمد والشكر لله على ما
« منّ عليكنّ من حسن التدرّج في مراقي الفضيلة ونشلِكُنَّ من ورطة

« هذا العالم . فيا ايتها البنات العزيزات حاربْنَ عدوّكن القديم بسلاح
« الصلوة والصوم لانّ اكليل الظفر لا يُعطى الاّ لِمَن سبق فجاهد
«حسب السُنَّة . ولقد كنتنّ مفتقراتٍ الى منزل لائق فيهِ يتيسّر لكنّ
« اتّباع كلّ قوانين رهبانتنا المقدّسة . فسُدّت حاجتكنّ ولم يعد لكنّ
« باعث الى الاحتجاج والاعتذار حيث انكنّ بنعمتهِ تعالى حاصلات
« على بيت تسهلُ فيهِ عليكنّ مراعاة القوانين بدقّة واحتراس . وعليهِ
« فأروم أن يُحفظ من الآن فصاعدًا السكوت في جميع الأماكن
« المذكورة في دستور الرهبنة . اعني في الخورس وحجرة المائدة والاروقة .
« وان تَسِرن في كلّ حين وحال وفقًا للمراسيم الرهبانيّة . ولا تَدعنَ
« إحداكنّ تتجاوز عتبة الدير . ولا تُبحنَ لاحدٍ من الخارج الدخول
« فيهِ الاّ اذا كان اسقفًا او حبرًا آخر اتاكنّ للوعظ او لأداء زيارة
« جهريّة . ولا تهمِلنَ قمع ابدانكنّ بالجلد والسهر . وأَحسِنَّ القيام بالطاعة
« لرئيستكنَّ . ولا تقضينَ اوقاتكنَّ في المخاطبات الباطلة . وبما انكن
« في عجزٍ كليّ عن القيام بأودكنَّ وسدّ عوزكنّ الزمنيّ فلا ينبغي ان تزيد
« فقركنّ ولذلك ننهى ايًّا كان من الاخوة عن قبول مبتدئات يثقلنَ
« عليكنّ . ونفرز هذا السلطان للرئيسة اتّفاقًا مع مجمع الدير ونسمح
« لاخينا العزيز مانيس (Mannès) الذي بذل قصارى جهدهِ في خير
« ديركنّ وأقامكنّ في حالتكنّ المقدّسة بالتصرّف والامر والنهي وتدبير
« الامور حسبما يراهُ موافقًا لكي تقضين حيوةً رهبانيّة قدسيّة . ونقلّدهُ
« سلطانًا يمكّنهُ من زيارتكنَّ وتدبيركنَّ وعزل رئيستكنَّ إن ألجأتهُ

« الضرورة الى ذلك بشرط ان يُجرى هذا برضى القسم الاكبر من
« الراهبات . ونبيح لهُ ايضاً ان يمنّ عليكنّ ببعض التفسيحات طبقاً
« لمبادىء الفطنة وحسن التدبير . والسلام لكنّ بربّنا يسوع المسيح »

ويلوح انّ مار عبد الاحد في بحر هذهِ الثلاثة او الاربعة الاشهر التي قضاها في اسبانيا اسّس أديرة كثيرة غير التي ذُكرت وأقام اخوية الورديّة في مدينة فلنسيا . ثمّ توجّهَ الى فرنسا ومعهُ بعض المبتدئين . وفي اثناء السفر خُيِّل لهُ أنّ تنّيناً هائلاً يُحاول ابتلاعهم فحذّرهم في الحال من مكايد العدوّ الجهنّميّ . وامّا هم فإذ رأوا عوزهم وشعروا بأَضرار الفقر والتعب والمشقّات تضعضعت قواهم وارتخت عزائمهم فتركوا أَباهم القدّيس . فلم يبقَ في صحبتهِ سوى اثنين او ثلاثة . وامّا هو فلم يشأ أَن يكونوا هدفاً لِسهام اللّعين بل انهُ عندما رأى مشوراتهِ لا تؤثّر في قلوبهم التجأ حسب عادتهِ الى الصلوة والتضرّع من اجلهم . ونتيجة ذلك كانت انّهم رجعوا اليهِ جميعاً . واذ بلغوا قرب مدينة تولوزا لم يكن لهم من الخمر سوى كاسٍ واحدة وامّا هم فكانوا ثمانية رهبان على التقريب . فعند ذلك رقّت لهم احشاء ابيهم الحنون اذ انّ اغلبَهم كانوا نحيفي البنية لم يعتادوا العيشة الشاقّة . فسكب حينئذٍ تلك كاس الخمر في اناء كبير وملأ الاناء ماء وأَحالهُ باعجوبة الى خمرٍ جيّدة أَروَت غليلَهم وابقوا منها فضلة . وعند نزولهِ في مدينة تولوزا ترك فيها رفاقهُ ليُصلحوا أَخربة الدير الذي قوّضهُ الهراطقة اوان فتكهم بسيمون المنفوري

ومن هناك سافر قاصدًا باريس وبمعيّتهِ الاخ برترند الكريكيّ (Bertrand de Carrigue) . وفجأتهما في مسيرهما مطرةٌ فرسم القدّيس اشارة الصليب وصار يمشي هو ورفيقهُ بدون ان يمسَّهما المطر مع انّهُ كان يقع حواليهما . وفي طريقهِ زار معبد مريم العذراء الشهير المسمّى رُوك أَمَدُور (Roc Amadour) وبات فيهِ ليلةً يسهر ويجدّ في إرواء غليل عبادتهِ لهذهِ الامّ الطوباويّة . وفي الغد قام باكرًا وشرع في مواصلة سفرهِ . واذ كان يمشي مع الاخ برترند وهما يتناوبان ترتيل الاناشيد والمدائح الروحيّة اذا بحجّاج جرمانيّين أخذوا تعقّب آثارهما . ولدى مشاهدتهم ما كانا عليهِ من روح العبادة والتُّقى أَحسنوا ملقاهما وبالغوا في إكرامهما وقاموا بتأدية ما احتاجا اليهِ للسفر كالقوت وغيرهِ . فلمّا عاين عبد الاحد سخاءهم قال لرفيقهِ : « ايها الاخ برترند ها إنّنا ناكل خبز هولاء الحجّاج « دون ان نقيتهم بدلاً عن ذلك بالطعام الروحيّ . فتعالَ نجثُ على الارض « طالبَين من الله ان يلقِّننا لغتهم فيمكننا حينئذٍ مخاطبتهم وتبشيرهم « باسم يسوع المسيح » . ففعلا وبعد الصلوة طفقا يكلّمان الجرمانيّين عن ربنا يسوع المسيح . وداما على ذلك اربعة ايام . وعند مفارقتهم قال القدّيس لبرترند : « ايها الاخ ها قد بلغنا باريس . فان وقف الرهبان على « وقوع المعجزة التي أبداها الرب يتّخذونا قدّيسين ولسنا نحن الاّ « خاطئَين . وإن شاع الخبر بين اهل العالم كان تواضعُنا في خطرٍ عظيم . « ولذا آمرك ان لا تخبر احدًا بالواقعة قبل موتي » . فامتثل الاخ امرهُ ولم يعلن الاعجوبة الاّ بعد وفاة القدّيس

ثمّ دخل مار عبد الاحد باريس ونزل في دير مار يعقوب فوجد فيهِ ثلاثين راهبًا . ولمّا كان مبدأهُ انّهُ ينبغي بذر القمح ولا إذخارهُ عزم على تفريقهم في نواحي فرنسا لينموا فيها ويكثروا ويشيّدوا اديرة ويسعوا مُشتغلين لخير النفوس . وفي تلك الاثناء عرض الاخ بطرس سلاّني جهلَهُ على القدّيس وأَظهر احتياجهُ الى كتب يطالعها فاجابهُ مار عبد الاحد بثقةٍ وطيدة قائلًا : « اذهب يا ابني اذهب ولا تجزع فانّي « ساذكرك في اليوم مرّتين امام الربّ . وانّك ستربح عددًا غفيرًا من « النفوس وتزداد نموًّا وتاتي باثمارٍ يانعة وعينُ العليّ ترافق مساعيك » . وأَعلن الاخ المذكور لاصدقائهِ انّهُ كلّما داهمتهُ بليّة او نزلت بهِ كارثة كان يضرع الى الله مستشفعًا مار عبد الاحد فكانت تدبرُ عنهُ المصاعب والمحن

ثمّ انّ مار عبد الاحد اخذ يمارس وهو في باريس الاعمال الرسوليّة . فكان يعظ عقيب الظهر في كنيسة مريم العذراء الشهيرة وذات يوم بينما كان جاثيًا للصلوة قبل الوعظ اذا بمريم العذراء ظهرت لهُ وبيدها ورقة اهدتها لهُ وكانت مسطورة فيها هذهِ الكلمات وهي : « السلام لك يا مريم » فجعلها موضوعَ خطابهِ وشُغف طلبة كليّة باريس برؤيتهِ وشاقتهم مواعظهُ . وفي ذلك الزمان وشّح باسكيم الرهبنة غليوم المونفرّاتي (Guillaume de Montferrat) وهو ذاك الشاب الذي كان قد آلفهُ في رومة عند الكردينال أُغلين وكانا قد اتّفقا معًا على الذهاب الى بلاد الكفرة

وغب ان رتّب مار عبد الاحد الدير زايل باريس وفي صحبتهِ

غايوم وراهبٌ آخر اسمهُ يوحنا . وعند وصولهم مدينة شاتيليون سورسين (Châtillon-sur-Seine) استضافوا الخوري فوجدوهُ حزينًا كئيبًا . وذلك لانّ ابن اختهِ كان قد سقط من السطح واوشك على الموت . فرقّ عبد الاحد لحزن اهل البيت وجثا مصلّيًا . ثمّ قام وأَخذ الصبي بيدهِ فردّهُ حيًّا لأُمّهِ . فأَعدّ الكاهن وليمةً اكرامًا للقدّيس ودعا اليها كثيرًا من اصدقائهِ الاتقياء . واذ لحظ عبد الاحد انّ أُمّ الولد لا تذوق الطعام لاجل حمّى قد اعترتها أَخذ قطعة سمك وباركها وناولها فشُفيت من وقتها

ثمّ توجّه الى ايطاليا ودونك ما كتبهُ عنهُ جرار الفراشيّ (Gérard de Frachet) : « عاد ابونا المجيد الى ايطاليا ومعهُ راهب
« اسمهُ يوحنا . فبينا هما صاعدان جبالَ الب اللمبارديّة اذ أَصاب
« الراهب ضعف في جسدهِ لشدّة جوعهِ وخارت قواهُ فعجز عن السير
« ووقع على الارض لا يستطيع النهوض . فقال لهُ القدّيس : — ما بك
« يا ابني وما الذي يمنعك عن المشي — . فأَجابهُ : — ابي سبب ذلك
« هو انّي مائتٌ جوعًا — . قال لهُ القدّيس : — تشجّع يا ابني . وهلمّ
« بنا نخطُ بعض الخطوات فنبلغَ موضعًا فيهِ ما يُصلِح قوانا المتراخية — .
« فأَجاب الاخ انّهُ لا سبيل لهُ الى ان يخطو خطوةً واحدة . فنظر اليهِ
« القدّيس نظرةَ ابٍ شفوق وكاد قلبهُ يسيل رقّة ثمّ استجار بملاذهِ
« المألوف وهو الصلوة . وبعدهُ التفت الى الراهب وقال لهُ : — قُم يا ابني
« واذهب متّجهًا الى ذاك الموضع وأتني بما تجدهُ هناك — . فقام الراهب

« بما لا مزيدَ عليهِ من العناء وسار قاصدًا المكان المومإِ اليهِ وكان
« على بعد رمية حجر . فرأى فيهِ خبزًا ذا بياض عجيب ملفوفًا بكتان
« فريدٍ بالنقاوة. فأخذهُ ورجع فأمرهُ القدّيس ان ياكل منهُ فأكل حتى
« عاودتهُ قواهُ . فسألهُ رجلُ الله هل يستطيع المشي حيث قد هدئت
« شدّة جوعهِ — . فاجاب : نعم — . فقال لهُ القدّيس : — خذ الآن
« فضلة الخبز ملفوفةً بالكتان وارجع بها الى حيث وجدتها — . فأطاع
« الاخ ثمّ واصلا سيرهما وغبّ أن قطعا مسافةً قليلةً أخذ الراهبُ يفكّر
« في نفسهِ قائلًا : — ترى مَن ذا الذي وضع الخبز هنالك ومن اين
« أتى بهِ . ألم اكُن فاقدَ العقلِ لِعدم اكتراثي لذلك حتى الآن. فسأل
« الاب القدّيس بقوله : — ايها الاب البارّ من اين ذلك الخبز ومن ذا
« الذي القاهُ هناك — . فاجابهُ الاب المحبّ التواضع والمحافظ عليهِ
« وقال : — الم تاكل من الخبز مقدار ما رغبت — . قال : نعم . — قال : —
« فان كان الامر كذلك فاشكر الله على افضالهِ ولا تعبأ بما سواهُ »

الفصل الثامن عشر

في اقامة القدّيس في بولونيا وسفرهِ الى رومة

في مُنتصف سنة ١٢١٩ انتهى مار عبد الاحد الى مدينة بولونيا (Bologne) فقبلهُ الرهبان بما لا مزيدَ عليهِ من الفرح في دير مار نيقولا حيث كان مترئسًا الاب الطوباويّ ريجينلدس . واطّلع مار عبد الاحد على انّ احد وجوهِ بولونيا وهب لرهبانهِ أَراضي غالية القيمة . فأَخذ ورقة المعاهدة ومزّقها بحضور المطران مُعلنًا انّ رهبانهُ لا يجوز لهم ان ياكلوا قوتهم الاّ بالتسوّل ولا يحلّ لهم ان يمتلكوا شيئًا البتّة . وكما انّ الفضائل كانت قرينة اعمالهِ في كلّ آنٍ ومكان كذلك كانت المعجزات ترافق خطواتهِ حيثما توجّه . وفي هذا الدير عينهِ أَظهر ايضًا قوّتهُ على اجتذاب قلوب الناس بكلامهِ وفضائلهِ وعجائبهِ . واليك ما رواهُ اسطيفانوس الاسبانيّ (Etienne d'Espagne) عن نفسهِ قال :

« في إقامتي في بولونيا اذ كنتُ متفرّغًا للدرس في إحدى مدارسها
« العُليا اقبل اليها المعلّم عبد الاحد وصار يعظ الطلبة الدارسين وغيرهم
« من الناس فكنت اذهب عندهُ للإقرار لهُ بخطاياي . ولم يزل يُظهر لي
« دلائل المحبّة التي كنّت في قلبهِ . وبينما كنتُ ذات يوم في مسكني
« أتهيّأ للعشاء مع رفقتي وافاني من قِبَلهِ راهبان يقولان : — إنّ الاخ
« عبد الاحد أَرسلنا في طلبكَ ويروم أن تاتي اليهِ في الحال — . فوعدتهما
« بالذهاب اليهِ بعد تناول الطعام . فأَجاباني انّهُ بانتظاري في الحال .

« فعدلتُ عن الاكل وقمتُ ورافقتها الى دير مار نيقولا فوجدتُ الاب
«عبد الاحد محتاطاً بكثير من الرهبان . فحالما رآني قال لهم : — علّموه
« كيفيّة إجراء السجدات — . وبعد انتهائهم من تلقيني ذلك جثوتُ
« على ركبتيّ بحرمة وخشوع فألبسني ثوب الاخوة الواعظين وهو يقول : —
« انّي مجهّزُك بأسلحةٍ تُمكّنك من مكافحة الشيطان مدى حياتك
« كلّها — . فتملّكني العجبُ والحيرة . ثمّ انّي كلّما تصوّرتُ ذلك أخذني
« الاندهال من الإلهام الفجائي الذي بهِ دعاني الاب عبد الاحد ووشّحني
« بثوب رهبنة الواعظين وانا لم اكن قط كلّمتهُ عن الترهّب . وممّا لا مراء
« فيهِ انّهُ صنع ذلك بالهامٍ عجيب او وحي الهيّ »

ولم يقتصر القدّيس على جذب الناس بالطافهِ وحسن اخلاقهِ بل كان فضلاً عن ذلك يساعدهم على السير في سبيل الفضائل بارشاداتهِ وامثالهِ والمعجزات التي كان يجريها الربّ على يديهِ . فكان كلّما نفِد خبز الرهبان او خمرهم يذهب الاخ رودُلف (F. Rodolphe) الى عبد الاحد ويخبرهُ بذلك فيشير عليهِ القدّيس بالصلوة او يرافقهُ الى الكنيسة ليصلّيا معاً وكان الرب يدبّر الاخوة دائماً . ولم يكونوا يشربون الخمر عادةً بل كانوا يذخرون منها قليلاً لسدّ حاجة المرضى . فحدث ذات يوم انّ ذلك القليل نفدَ ايضاً فقصد الممرّض مار عبد الاحد ومعهُ إناء الخمر فارغاً . فأخذ خادم الرب يبتهل الى الله كعادتهِ وحثّ على ذلك الحاضرين . وبعد فراغهِ من الصلوة رفع مُداري المرضى الوعاء فرآهُ مُمتلئاً خمراً . ويوماً آخر كان الرهبان صائمين ولمّا حانت ساعة الاكل اتى

الاخ بُنفيزي (F. Bonvizi) الى عبد الاحد وأَخبرهُ بنفاد الطعام . فتهلّل القدّيس فرحًا ورفع ذراعيهِ الى السماء وصار يشكر الربّ على انهُ اهّلهُ ان يكون بالحقيقة فقيرًا محتاجًا . ولكن ما عبرت عدّة دقائق الاّ ودخل محلَّ الاكل شابّان احدهما حاملٌ خبزًا والآخر تينًا فوزّعاهما على الرهبان . ويومًا آخر لم يكن في الدير سوى كِسرتَي خبزٍ فأَمر القدّيس ان تُقسَّما الى أَجزاء صغيرة ثمّ باركها وأَمر ان يُعطى كلُّ راهبٍ قطعتين او ثلاثًا وان يُعادَ ذلك حتى يشبع الاخوة ويكتفوا . فشبعوا ورفعوا فضلات وافرة

وبعد ان قضى هناك شهرًا عزم انهاء سفرهِ والذهاب الى رومة . ولكن قبل ذلك أراد ان يُفرّق الرهبان فارسلهم الى مدنٍ مختلفة وعيّن الطوباويّ ريجينلدس لدير باريس . واما هو فزايل بولونيا في اواخر تشرين الاوّل

وكان حينئذٍ على شاطئ نهر ارنو (Arno) بالقرب من كنيسةٍ وُهبت للاخوة الواعظين امرأَة اسمها بيني (Béné) كانت قد خلعت عن محيّاها العِذار فصارت تسير سيرةً رديّة . فتركها الربّ وسمح للشيطان الاستيلاء على جسدها . فصار ابليس يذيقها أَلوانَ العذاب . فحالما طرق سمعَها خبر موافاة القدّيس أَتت لسَماع وعظهِ . فارعوت ونالت من الله بتضرّع عبد الاحد النجاة من الروح النجس . ولكنّها عادت فسقطت ثانية في حبال العدوّ الجهنّميّ . وعند اجتياز القدّيس بعد سنة بفلورنسا (La Florence) أَقرّت لهُ ببساطةٍ انّ النجاة صارت لها عثرة للسقوط . وأَنّ الأَمن الذي نالتهُ ساقها الى الخطإِ . فسأَلها القدّيس

هل ترضى بتجشم العذاب كالسابق . فاجابته انها مستعدة لقبول كل ما ياتيها من لدن الرب . فقال لها القديس : « ها اني اصلي الى الرب « طالبًا ان يصنع بكِ ما يصلح لخلاصكِ » . وحالاً اعتراها الشيطان من جديد . غير انها تابت توبةً نصوحًا وانصبّت على مُمارسة الفضائل . وبعد ذلك بزمن ترهبت فدُعيت الراهبة مباركة وارتقت الى ذروة الكمال .
وكان هناك اكليريكيٌّ اسمهُ هوغوس (Hugues) يضطهدها لتعلقها بالاخوة الواعظين . فشكت حالها للقديس . فاجابها قائلًا : « صبرًا يا « اختي . فلا يمرّ زمن الآ ويدخل هذا الكاهن رهبانتنا ويقوم فيها « باعباء امور شاقة » . وتمّ الأمر طِبقًا لنبوّته

ثمّ توجه الى مدينة ويتربِ (Viterbe) وكان الحبر الاعظم مقيمًا فيها فقبلهُ بمزيد الاكرام والحفاوة وأنعم عليهِ ببراءةٍ فيها يثني على فضائل الاخوة الواعظين ويوصي بهم المطارين . وحتى الجيل الثامن عشر كان يُرى في مدينة ويترب في الكنيسة الممنوحة للاخوة الواعظين آثار دم القديس المُهراق من جسدهِ حين جلدهِ نفسه . وبلغ اخيرًا رومة وكان ذلك في اوائل سنة ١٢٢٠ . ويخبرنا احد المؤرخين انهُ وزّع على راهبات دير مار سكستوس ملاعقَ اتى بها من اسبانيا . فيا لها من بساطةٍ عجيبة . انظر يا ترى كيف انَّ هذا منشئ الرهبنات يفتكر من بعدٍ شاسع ان يسرّ راهباتهِ العزيزات فيحمل اليهنّ عدّة ملاعقَ على كتفهِ طول سفرهِ الشاقّ . وقولي على كتفهِ لانّهُ لم يسمح قط لأحدٍ ايًا كان ان يحمل اثاثهُ وامتعة طريقهِ . بل كان هو بنفسهِ يحملها في اثناء السفر وان طال وعسر

الفصل التاسع عشر

في المجمع الرهباني الاوّل وفي انذار مار عبد الاحد ايطاليا الشماليّة وتاسيسهِ الرهبنة الثالثة

بعد أَن زار مار عبد الاحد أَديرة رهبنتهِ وشاهد ما نالتهُ من سموّ الترقّي وعظمة الاتّساع في مدّة ثلث سنين. افتكر انّ رهبنةً هذا اتّساعها تتطلّبُ ضرورةً ان يُقام فيها اجتماعات عموميّة يحضرها افاضل الرهبان من كلّ دير ليستمرّ فيها روح النشاط والاتّحاد . فلأَجل ذلك أَمر بعقدِ مجمع في بولونيا يوم عيد الفنطيقسطي سنة ١٢٢٠ . وامّا هو فغادر رومة في أَواخر شباط او أَوائل اذار . وقضى في مدينة ويتِرب (Viterbe) ايّامًا قليلة فنال فيها من الحبر الاعظم براءات مُنبئة عن محبّتهِ لرهبنة الواعظين واعتبارهِ العظيم لمُنشئها . ومن هناك شخص الى بولونيا . وفي عيد الفنطيقسطي التأَم وفود الاديرة الدومنيكيّة فافتتحوا المجمع الاوّل

وأَوّل أَمرٍ عُرض للمحاورة كان إِجراء ما جزموا على صنيعهِ حين كانوا يسنّون قوانينهم وهو عدم امتلاكهم شيئًا البتّة وعيشهم من صدقات المؤمنين . وأَلقى القدّيس حينئذٍ خطبةً عجيبة اوضح فيها جودةَ الله ورحمتهُ وأَنّها كنز غنيّ لمن وضع اتّكالهُ عليها . فكان لكلامهِ وقع عظيمٌ في قلوب الحاضرين فأَجمعوا كلّهم على هذا الرأي وأَلقوا عن اعتاقهم وِقرَ الاهتمام بالاملاك الارضيّة وتدبيرها وعدلوا عن استبقاء ما كانوا قد مُنِحوهُ منها سابقًا فوهبوهُ لِرهبناتٍ مختلفة وأَمسوا منذ ذلك الحين لا مُلكَ لهم سوى ملكِ فضائلهم وقداستهم

ثمّ عرض القدّيس امرًا آخر كان لديهِ شديد الاهميّة ويلوح لهُ مخلاًّ بمجد الله ونجاح الرهبنة فقال : « ينبغي لي ان أُعزَل لكوني في غاية الضعف ولا اجدي نفعاً يُذكر » . وهكذا كان القدّيس زعيم اخوتهِ وإمامهم في المقام والقداسة يُكثِر من الاتّضاع امامهم بافعال مختلفة . وبعزل عن داعي التواضع والخمول قد رام التنزّل عن الرئاسة ليتمكّن من الذهاب الى بلاد الكفرة فيبشّرهم بالانجيل ويحظى باكاليل الاستشهاد . على انّ آباء المجمع فنّدوا حججهُ وأَبوا الإجابة الى طلبتهِ . ولكن لاجل الحاحهِ الشديد رسموا هذا القانون وهو ان يُقام بعض من افاضل الرهبان يُفوّض اليهم وقتَ المجمع فقط الإهتمام بتدبير الامور المختصّة بالرهبنة ويحق لهم حينئذٍ عزل الرئيس العامّ إن كان مُقصّرًا في فروض مقامهِ . ثمّ سنّوا شرائع اخرى منها التآم مجمع عامّ في كلّ سنة . وبعد تعيينهم مدينة بولونيا محلاًّ لعقد المجمع في السنة التالية عاد كلّ منهم الى ديرهِ

واما عبد الاحد فلمّا رأى ضرورة إقامتهِ في اوروبا لتدبير رهبنتهِ عزم على القاء بذر الخلاص في ايطاليا الشماليّة حيث كان سمّ الضلال قد سرى في عقول سكّانها وسيف الفساد قد نفذ في قلوبهم فانضمّوا الى الهراطقة واشتركوا في معتقدهم وآدابهم . وبعضهم عملوا ذلك من جور الهراطقة . وغيرهم لعدم وجود من يهتمّ بهم فيرشدهم ويدبّرهم . فطاف قدّيسنا الجليل في المدن وصار يرشد الناس بمواعظهِ السديدة . وكان كعادتهِ يقرن اقوالهُ بالاعمال المبرورة فتلألأَت قداستهُ السامية وتكلّلت باجراء المعجزات . ولكنّهُ اعترتهُ الحمّى في مدينة ميلان (Milan)

وفي هذا الشان يخبرنا الاخ بنفيزي (Bonvizi) مداريهِ ومرافقهُ في اسفارهِ انّهُ لم يتشكَّ ابدًا من مرضهِ ولم ينفكّ من الصلوة والتامّل. وكلّما تركتهُ الحمّى قليلًا باشر الوعظ وحفظ القوانين بكل تدقّق واحتراس

وزار في مدينة كرمون (Crémone) ديرًا للاخوة الصغار وكان حينئذٍ في ذلك الدير القدّيسُ فرنسيس الأسّيسي . فتلاقيا وأخذا بالحديث والمؤانسة . وبينما هما على تلك الحال إذ أقبل اليهما بعض الرهبان قائلين : « الدير معتاز الى الماء وبما انّكما ابوانا وخادما الله نسألكما « ان تتضرّعا اليهِ تعالى ان يبارك على ماء بيرنا فيصلح ويصفو لانّهُ آسِن « وعَكِر » . وصار حينئذٍ كلٌّ من القدّيسَين ينتظر من صاحبهِ الاجابة « الى سؤال الرهبان . فأمر عبد الاحد الرهبان ان يستقوا ماءً وياتوهُ بهِ . ففعلوا ولمّا حضر الماء قال لمار فرنسيس : « بارك ايّها الاب هذا الماء باسم « الرب » . فاعتذر وأجاب بغاية الاتّضاع وقال : « باركْهُ انت ايّها الاب « لكونك اكبر منّي » . وعلى هذا المنوال طالت المحاورة بينهما وفي الآخر ظفر مار فرنسيس . اذ انّ مار عبد الاحد طاعةً لأمرهِ بارك الماء وأمر بسكبهِ في البئر فطهُر في الحال ماؤها

وفي مدينة مُدين (Modène) حضر عظتَهُ كاهنٌ فرنسيّ اتى اليهِ واقرّ لهُ أنّهُ قد اشرف على الياس من الخلاص لاجل تجاربَ دنسةٍ يشقّ عليهِ قهرُها . فقال لهُ القدّيس : « تشجّع وثق برحمة الله فأنالَ لك فضيلة « العفّة » . فنجا لساعتهِ من تلك التجارب القبيحة

ولمّا بلغ بلدة بَرم (Parme) ذهب ليلًا ومعهُ رفيقهُ الى دير

كُلُمب (Colombe) ولم يشأ ازعاج الرهبان وايقاظهم من النوم. فصار يصلّي طالبًا الى الله ان يُدبّر امرهما فما أنهى صلاتهُ الاّ وُجد هو ورفيقهُ داخل الدير

والحَّ عليهِ اسقف سيان (Sienne) بالنزول في دارهِ فرضي بذلك . وفي اثناء اقامتهِ عندهُ كان يقوم كلّ يوم في نصف الليل ويذهب مع رفيقهِ الى الكنيسة للصلوة . وفي ساعة ذهابهِ كان يأتيهِ ملاكان حاملَين مشاعل فيفتحان لهما باب دار الاسقفيّة ويرافقانهما الى الكنيسة وعند انتهاء الصلوة يعودان بهما الى محلّهما . فأحسّ خادم المطران بذلك وأعلم بهِ سيّدهُ . فتحقّقهُ الاسقف هو بنفسهِ ورأى بعينهِ الملاكين مُرافقَين القدّيس . فأسدى الحمد والشكر لله على ما مَنَّ بهِ على صفيّهِ عبد الاحد

ثمّ آبَ القدّيس راجعًا الى بولونيا يوم عيد انتقال مريم العذراء . وفي حديثٍ جرى لهُ ذات ليلةٍ مع احد رؤساء رهبنة مار بندكتس وكان من اخصّ اصدقائهِ كاشفهُ بأمرٍ لم يَبح بهِ لاحد وهو انهُ لم يسأل الربَّ شيئًا فخاب . فقال لهُ الراهب : « إن كان الامر كذلك فما بالك « اذًا لا تطلب اليهِ تعالى ان يُدخل رهبنتك الملفان كُنرَد (Conrad) « والرهبان يتلظّون شوقًا الى انضمامهِ الى جماعتهم » — وكان كُنرَد المذكور المانيَّ الجنس طائرَ الشهرةِ مشهودًا لهُ بالعلم والعمل — فأجاب القدّيسُ الراهبَ المذكور قائلًا : « انّ ما تقولهُ لامرٌ عسرٌ نيلهُ ولكن ان رضيت « ان تشاركني في الصلوة والسهر ليلًا فلي املٌ وطيد انّ الله ينعم علينا به » . فسهرا الليل مُصلّيَين . وعند الصباح حين كان الرهبان يتلون صلاة الساعة الاولى من الفرض اذا بكُنرَد ذاك كوكب بولونيا على ما دعاهُ المؤرّخون

أَتى فخرَّ على قدمَي عبد الاحد طالبًا منهُ بإلحاح ان يَقبلهُ في رهبنتهِ . فتأكّد حينئذٍ ذاك الراهب انّ الربّ لا ينكر شيئًا على صفيّهِ عبد الاحد. فكتم السرّ وفقًا لأمر القدّيس ولكنّهُ عقيب ذلك خشيةَ ان يموت قبلهُ طلب منهُ السماح بإجهارهِ . فأمّنهُ مار عبد الاحد وسكّن بالهُ بتاكيدهِ لهُ انهُ يبقى بعدهُ في قيد الحيوة . وتمَّ الامر كما قال إذ انّ الراهب المذكور عاش بعد القدّيس زهاء عشرين سنة

ولمّا شاهد مار عبد الاحد نجاح الهراطقة وانبثاث اضاليلهم في تلك الاصقاع كلّها لاح لهُ انّ أَريج صلوات راهباتهِ المتصاعد بلا انقطاع الى عرش الله واماتاتهنّ القاسية وكلام اولادهِ الاخوة الواعظين وتعاليمهم ومواعظهم السديدة لم تكن كافية لإخماد نار الطغيان والضلال وصدّ الهراطقة عن اضطهاد الكاثوليك . فلم يقتصر على تشييد الأديرة وتدبيرها بمراسيم جليلة بل كما انّ الشمس عند مَيلها الى الغروب تاخذ بالامتداد والانتشار كذلك عبد الاحد قبل قضائهِ مَسعاهُ وارتحالهِ الى دار البقاء امتدّ وانتشر على وجهِ البسيطة كلّها بتشعيبهِ من دوحة الرهبان غصنًا ثالثًا فأنشأَ الرهبنة الثالثة فأوى الى ظلّها الرجال والنساء والشيوخ والشباب . وبقيت هذهِ الرهبنة الجديدة تكنّى بجنديّة المسيح. واعضاؤها يعيشون في العالم ثابتين على الايمان وملتزمين كلٌّ حسب مكنتهِ ببذل المجهود في المحافظة على اموال الكنيسة المقدّسة والمحاماة عن حقوق الأرامل والأيتام والضعفاء . ووضع لهم مراسيم مضمونها من الصلوات والانقطاعات والأصوام والأسهار ما زاد وفاق . وأقام لهم رئيسًا

ياوذ برؤساء الاخوة الواعظين . وقال الاب لكُردير (Lacordaire)
العلاّمة الدومينيكيّ في كتاب سيرة مار عبد الاحد :

« انّ الرهبنة الثالثة هي كغصنٍ ثالثٍ من رهبنةٍ واحدة يحوي
« في ظلّهِ النساء والشبّان من اهل العالم . فانّ مار عبد الاحد بتأسيسه
« رهبنة الاخوة الواعظين أخرج من البراري الزُّمَر الرهبانيّة وسلّحهم
« بسيف الوعظ . وبتأسيسهِ الرهبنة الثالثة ادخل العيشة الرهبانيّة في
« المنازل الأهليّة ومخادع المتزوّجين . فظهر العالم مشحونًا بصبايا وارامل
« ومزوَّجين واشخاص من كلّ صنفٍ ومرتبة حاملين بين الناس رأيةً
« رهبانيّةً وقائمين بفروضها في خفايا بيوتهم

« وقد سمح الباري عزّ وجلّ ان يتجنّد الناس بطوع ورضى تحت
« رأية احدى هاتين الرهبنتين . وهما رهبنة مار عبد الاحد ورهبنة مار فرنسيس
« وذلك ليتفرّغوا لخدمة يسوع المسيح بالوعظ والتوبة ويتزيّأوا بالزيّ الفقري
« ويستظلّوا تحت احدى هاتين الدوحتين ليعيشوا مداومين على ما كانوا
« عليهِ سابقًا من الاشغال الصناعيّة ويتردّدوا الى كنائس هاتين الرهبنتين
« ويتقاسموا صلواتهما ويتزلوا في صحبتهما ويقتدوا بفضائلهما حسبما يتيسّر لهم .
« ولم يكن هولاء الجنود محتاجين الى الهرب من العالم ليرتقوا الى اعلى درجة
« من القداسة فانّ مخادعهم استحالت صوامعَ وبيوتهم أَضحت لهم اديرة »

وبالحقيقة انّ تاريخ هذهِ الرهبنة يلَذّ لقرّائهِ ويشوق قلوبهم وذلك لان
قد قام فيها قدّيسون من كلّ صنفٍ من الناس من ملِكٍ ومملوك وغنيّ وفقير
ولكثرة اقبال الناس عليها غَبَطتها الاديرة وكادت المناسك ان تحسدها

الفصل العشرون

في اشغال القدّيس عبد الاحد في بولونيا

قد ابدى مار عبد الاحد كلّ فنون همّتهِ وحصر جُلَّ اشغالهِ في مدينة بولونيا . وذلك فضلًا عمّا كان يتجشّمهُ من الاسفار الطويلة الشاقّة في النواحي التي ذكرناها . فكنت تراهُ ملازمًا الوعظ والارشاد ومُدمنًا على تعليم كلّ من قصدهُ . فطارت شهرتُهُ وعظُم منزلةً وقدرًا في عيون سكّان بولونيا . فمحضوهُ حبًّا خالصًا شديدًا وكانوا يتقاطرون اليهِ أفواجًا رغبةً في استماع وعظهِ النافذ في القلوب . واحيانًا كثيرة كانوا يزدحمون قبالة دير مار نيقولا منتظرين رجل الله القدّيس . وعند خروجهِ كانوا يتحفونهُ بالاكرام والاجلال ويشيعونهُ باحتفالٍ وابتهاج الى محلّ الوعظ . وبينما كان الجمعُ مُقبلًا ذات يوم لمرافقة القدّيس وكان هو حينئذٍ في الكنيسة اذا بفتيَين من طلبة المكاتب مثلا بين يديهِ فسألهُ احدُهما قائلًا : « ابتغي اليك ان تستمدّ لي من الله مغفرةَ خطاياي لكوني « اشعر بذاتي منكسر القلب ندامةً عليها واظنّ اني قد أقررت بها كلّها » . فانحاز القدّيس الى احدِ المذابح وهناك أكبّ على وجههِ مصلّيًا . ثمّ عاد الى الفتى قائلًا : « ثِق بالله ودُم ثابتًا على محبّتهِ فانهُ قد صفح عن مآثمك » . امّا رفيق الفتى المذكور فلدى سماعهِ ذلك تقدّم هو ايضًا الى مار عبد الاحد قائلًا : « يا ابانا اشفع فيَّ فانا ايضًا قد اعترفتُ بخطاياي كلّها » . فخرّ القدّيس راكعًا ثانيةً امام المذبح وصلّى هنيهةً ثمّ رجع اليهِ قائلًا :

«يا ابني ما لك والسعي في خدع الرب . فانك لم تعترف بخطاياك كلها «اذ قد ساقك الحياء البشريّ الى كتم واحدة تعمّدًا» . وفي الحال أخذهُ في خلوةٍ وكشف لهُ تلك الخطيّة المكتومة . فأقرّ الشابّ بصحّة كلامهِ واستمدّ الغفران فأرشدهُ القدّيس ثمَّ سار بمعيّة الشعب الذي كان في انتظارهِ للوعظ

ويومًا آخر اتاهُ احدُ المرابين يطلب تناول القربان الاقدس من يدهِ . فلما تناولهُ حتى شعر كانَّ جمرة نارٍ وقّادة دخلت فمهُ فأسعرتهُ . وصار ذلك باعثًا لارعوائهِ . ومرّةً أُخرى قصدهُ احدُ الشبّان المتمرّغين في حمأة اللذّات الدنسة فسمع قدّاسهُ وموعظتهُ ثمّ لثم اناملهُ فنشق منها رائحةً ذكيّة سماويّة أحارت لبّهُ ولكن ما زاد حيرتهُ هو انّهُ رأى نفسهُ منذ ذلك الحين ناجيًا بالتمام من لذعات التجارب الدنسة . وهذا ما أعلنهُ ذلك الشابّ عينهُ

وكان لكلام مار عبد الاحد وقعٌ عظيمٌ في قلوب الرهبان الوافري العدد الذين جذبهم اليهِ بمثالهِ ومواعظهِ ومعجزاتهِ الباهرة . فألبس يومًا اسكيم الرهبنة شابًّا اسمهُ توما وكان دمث الاخلاق مليح الشمائل . فأحبّهُ القدّيس لنقاوتهِ الملاكيّة . الاّ انّ توما لم يلبث في الدير بضعة ايّام حتى قدم اليهِ اصدقاؤُهُ فاجتذبوهُ خارج الدير وعرّوهُ عن ثوب الرهبنة . فشاهد الرهبان ذلك فأسرعوا وأخبروا بهِ مار عبد الاحد . فبادر الى الكنيسة وشرع يصلّي . وكان حينئذٍ توما المذكور يُلبَّس الثياب العالميّة فأحسّ كانَّ نارًا متأجّجة لفحتهُ وصار يصرخ ويُولول . ولم يكن

ولم يهدأ حتى ارجعوهُ الى الدير وأَعادوا عليهِ الثياب الرهبانيّة

ويوماً آخر دخل الدير احدُ أَعيان المدينة قاصداً الترهّب. فاستشاط اصحابهُ غضباً وحنقوا عليهِ وعلى الرهبان. فهجموا على الدير وقبضوا على رفيقهم وساقوهُ قسرًا. فأَتى الرهبان الى مار عبد الاحد ينبئونهُ بالخبر ويسألونهُ ان ينال لهم المساعدة والأَيد من لدن اكابر البلدة. فأَجابهم قائلًا: «ها اني ارى حول الكنيسة ما ينيف على مائتين من «الاجواق العلويّة بعث بها اللهُ لتحامي عن الاخوة». وما كان ذلك الاّ عين الحقّ فإِنّ اولئك الاصحاب الهائجين كرّوا مُدبرين وتاركين صديقهم في كمال الحريّة

وفي الدير عينهِ ظهرت قدرةُ القدّيس على الشيطان اللعين الذي كان لا يبرح الليل والنهار يترصّد الرهبان ويكيدهم. ولا يدع فرصةً تمرُّ الاّ افترصها ليفتكَ بعبد الاحد واولادهِ. بيد أَنَّ قدّيسَنا كان ساهرًا متدرّعًا بيمين العليّ وباذلاً جهدهُ في المحاماة عن رهبانهِ وتحذيرهم من السقوط في شَركِ العدوّ الجهنّميّ. ولكنَّ هيجان ابليس على الدير لم يؤل الاّ لخزيهِ وانخذالهِ اذ انّهُ كلّما حاول اختطاف نفس احدِ الرهبان صرعهُ مار عبد الاحد كاسرًا شوكتهُ بقداستهِ. ودونك ما رواهُ الاب تيرّي دابلدا قال:

«في احدى الليالي رأى مار عبد الاحد ابليسَ المفتريَ ماسكاً «بيدين شبيهتين بالحديد رقعةً يقرأها في ضوء السراج. فسأَلهُ القدّيس «عن موضوع قراءتهِ فأَجابهُ انهُ يقرأ خطايا رهبانهِ. فزجرهُ الاب القدّيس

« بسلطانهِ القويّ وأمرهُ بِرَمي الورقة من يدهِ . فاضطرَّ باسم يسوع المسيح
« الى القائها فرفعها القدّيس ووجد فيها اشياء جمّة أصلح منها الرهبان .
« فهكذا يتعرقل ابليس بحبائلهِ ويُنشَل الابرار من وهدة المحن والبلايا

« ويوماً آخر بينما كان القدّيس يدور كالحارس اليقظان في ديرهِ
« او بالاحرى حول اورشليم الرهبانيّة المشغوفة بها نفسهُ البارّة ويترقّب
« اقتحام العدوّ الجهنّمي القاصد الهجوم على اسوارها اذا باللعين مرّ زائرًا
« كالأسد دائرًا في جميع زوايا الدير ساعيًا في طلب فريسة يفترسها .
« فأوقفهُ القدّيس قائلًا : — لِمَ تجول هاهنا يا وحشًا ضاريًا — . فقال
« المحتال : — طمعًا في الربح — . فقال لهُ القدّيس : — وايّ نفع تجد في
« محلّ النوم — . أجاب الشيطان : — أَمنع الرهبان عن الرقاد الضروريّ
« وأَحرمهم الاستراحة فأَجعلهم ينهضون متباطئين وأَحملهم بذلك على عدم
« الذهاب الى الكنيسة لإقامة الفرض . وعلاوةً على هذا أُثير عليهم
« بسماح الله الشهوات الدنسة فيشعرون بشوكة الجسد المتمرّد ثمّ أُلقي
« في عقولهم خيالات باطلة — . ثمّ سار بهِ القدّيس الى الخورس وقال لهُ : —
« وايّ فائدة تستحصل في هذا المحلّ المقدّس — . فقال : — احمل الرهبان
« على الإتيان اليهِ آجلًا ومبارحتهِ عاجلًا وادفعهم الى السهو والتغافل
« مدّة الصلوة — . ثمّ سألهُ مار عبد الاحد عمّا يفعلهُ في محلّ الأكل
« فقال : — اسوق البعض الى الشراهة وغيرهم الى التقشّف المفرط . —
« وأتى بهِ القدّيس الى الديوان فشرع اللعين يُقهقهُ ويقول : — امّا هذا
« المكان فهو خاصّتي إذ هو محلّ الضحك والضوضاء وموضع الكلام

« الواهي البطّال — . ولمّا قادهُ القدّيس الى مُجتمع الرهبان للإقرار
« بالنقائص حاول الشيطان الهرب خوفًا وجزعًا وقال : — هذا المحلّ هو
« موضوع عذابي فانّي اخسر فيهِ ما ربحتهُ في الأماكن الاخرى . إذ هنا
« يُلقي الرئيس على الرهبان نصائحهُ المفيدة . هنا يُقرُّ الرهبان بنقائصهم
« او يُشتكى بها عليهم . هنا يقتبلون الجلد فينالون العفو عن زلاّتهم .
« ولذا فانّي ابغض هذا المحلّ وامقتهُ اكثر من سواهُ — . وهكذا اضطُرّ
« ابليس بأمر القدّيس المتسربل بقوّة العليّ ان يُميط الحجاب عن جميع
« مكايد خبثهِ ومكرهِ حتّى اذا ما عرفها الاصفياء يسخرون بهِ فيجتنبون
« مخادعاتهِ وينجون من التشبّك في احبولاتهِ »

وروى الاب تيرّي انّ العدوّ الجهنّمي قصد يومًا كنيسة الاخوة الواعظين في بولونيا ايضًا بزيّ شابّ يافع لائحة على محيّاهُ سيماء الخيلاء والدعارة . فطلب احدَ الآباء الرهبان لاستماع اعترافهِ . فأُحضر لهُ بالتتابع خمسة منهم . الاّ انّهم جميعهم تركوهُ حالما شرع يكلّمهم لانّهُ تظاهر لهم بغرامٍ فاحش تهيجُ لديهِ اميال الجسد المُنحرفة . فعدلوا عن استماع اعترافهِ وعادوا الى قلاليهم ساكتين لا يريدون افشاء سرّ اعترافٍ كانوا يعتدّونهُ اعترافًا حقيقيًّا وهو كان شيطانيًّا . فذهب عند ذلك قيّمُ البيعة الى الدير ودعا مار عبد الاحد وقال لهُ : « أَمِن العدلِ انّ رهباننا الكهنة ينذرون « بعمل التوبة وهم لا يسعون في فرض القانون على الخطأة . اوَ ليس هذا تشكيكًا ظاهرًا » . فقام القدّيس في الحال تاركًا قراءتهُ وتأمّلاتهِ الروحيّة وأَقبل لاستماع الاعتراف . وعند دخولهِ الكنيسة تقدّم اليهِ الرجيم

المحتال . فعرفهُ من ساعتهِ وقال لهُ : « ايها الروح الخبيث ما لك تُجرّب « عبّاد الله وانت متردٍ بوشاح التقوى » . ووبّخهُ وزجرهُ فغاب الشيطان حالاً في ذاك الموضع عينهِ وترك في الكنيسة رائحة كبريت كريهة لا يُطاق شمُّها

ومما يُظهر بوجهٍ اوضح سلطةَ رجلِ الله على ابليس خبران آخران وهما : كان احد الرهبان قد فُوّضت اليهِ العناية بالمرضى واحياناً عديدة أكل دون إذن اللّحم الفاضل عنهم . فاعتراهُ يوماً الشيطان فصار يضجّ ويصيح بصراخٍ ألقى الرعبة في قلوب الرهبان كافّة . فتسارعوا اليهِ ومار عبد الاحد معهم . فحين رأى الراهبَ في تلك الحالة رقّت لهُ احشاء رأفتهِ . فزجرَ الشيطان ونبّهُ على استيلائهِ على جسد الراهب . فأجابهُ الشيطان قائلاً : « لم ادخل جسد هذا الراهب الاّ لكونهِ امسى اهلاً « لذلك باكلهِ اللّحم الفاضل عن المرضى خلافاً لقانون الرهبنة » . فقال القدّيس : « اني بالسلطان الذي تقلّدتهُ من العلاء احلّهُ من هذهِ الجريمة . « واما انت يا شيطان فآمرك باسم ربّنا يسوع المسيح ان تخرج منهُ وان لا تعود بعدُ تعذّبهُ » . فنجا الراهب من ساعتهِ

ومرّةً أُخرى قبض ابليس على جسد احد الرهبان فصرعهُ وجعلهُ يصرخ ويولول حين كان الجميع نائمين . فنهضوا لصراخاتهِ وأعلموا بذلك مار عبد الاحد . فأمر ان يُقاد الى الكنيسة . فعند دخولهِ فيها نفخ نفخةً أطفأ بها كلّ المشاعل . فزجر القدّيسُ ابليس وقال : « استحلفك باسم « يسوع المسيح ان تقول لي السبب الذي لاجلهِ سُمح لك بتعذيب

« هذا الراهب وكيفيّة ولوجك فيهِ » . فقال الشيطان : « سبب ذلك
« اقترافهُ ذنبًا وهو انهُ بينما كان في المدينة بعد الظهر شرب بلا اذنٍ
« ودون رسم علامة الصليب فدخلتُ فيهِ بشكل ذبابة او بالاحرى هو
« الذي ابتلعني وانا على هذا الشكل » . وعند ذلك قُرع ناقوس صلاة
« الليل فرمى ابليسُ الراهب على الارض وتركهُ غائبًا عن رشدهِ . فحُمل
الى المستشفى وأُبقي فيهِ حتّى طلوع الفجر دون ان يشعر بشيء البتّة . ولمّا
استفاق اخبروهُ بما حدث فاتّعظ وصار يسعى في حفظ القانون بتدقيقٍ كلّي

وفي أَواخر سنة ١٢٢٠ عاد مار عبد الاحد الى رومة وكانت
تلك عودتهُ السادسة اليها فزار رهبانهُ وراهباتهِ . ومنحهُ الحبر الاعظم
هونوريوس الثالث براءَةً فيها منّ على الاخوة الواعظين بجملة انعامات
وامتيازات وأَوصى بهم مطارين المعمور قاطبةً . وحَظي هناك بملاقاة
صديقهِ القديم السيّد فُلك مطران تولوزا فأَخذا يتبادلان اظهار المحبّة التي
لم يتمكّن الفراق من فصم حبالها الرابطة قلبيهما . وبعد اقامتهِ في رومة
أَشهرًا قليلة آب الى بولونيا في طريق تُسكَن (Toscane) وكان في تلك
الطريق على مقربةٍ من بُلسينا (Bolsena) محلّ يسمّى سنت
كِرِستِين (Ste. Christine) وكلّما مرّ القدّيس قَبِلهُ صاحبهُ في منزلهِ
وأَحسن مثواهُ . وهذا الصنيع المبرور لم يكن ليلبث دون مجازاة .
وحدث ذات يومٍ انّ عاصفةً مهولة ثارت في تلك الاصقاع وأَرعبت قلوب
السكّان والقتهم في حيرة وخوف على عقارهم ومواشيهم . وصار البَرَدُ
يقع بغزارة . فبادت بذلك الزروع والبساتين وتلفت الكروم والاشجار .

فبينما كان الناس يشهدون بعينٍ حزينة وقلبٍ كئيب هبوطَ البَرَدْ الساحق كلّ الاراضي اذا بمار عبد الاحد تراءى طائرًا في الفضاء باسطًا عباءتهُ فوق كرم ذلك الرجل الكريم فوقاهُ من كلّ شرّ وضرر . فأَسدى الرجل الشكر لفضل مار عبد الاحد . وتخليدًا لذكر هذهِ المنّة أَوصى وُرثاءهُ ان يُضيفوا في منازلهم بكلّ وداد وترحب الاخوة الواعظين حين يقصدونهم . وأَن يُسكنوهم في حجرة القدّيس عبد الاحد

وعند بلوغهِ بولونيا رأى الاخَ رُدُلف (F. Rodolphe) وكيل الخرج يسعى في توسيع قلالي احد جوانب الدير . فاغتمّ لذلك غمًا شديدًا وسكب الدموع السخينة . ثمّ قال للوكيل : « ماذا تصنعون أَمنذ الآن تحاولون هجر الفقر فتشيّدون لكم قصورًا » . ولم يُبِح تتميم البناء حتى وفاتهِ

وكان الرهبان حينئذٍ يتقاطرون من كلّ دير لحفلة المجمع الرهبانيّ الثاني في ٣٠ ايار سنة ١٢٢١ في عيد الفنطيقسطي . وفي هذا الصدد اخبرنا الاب تيرّي دابُلدا بالحادث الآتي ذكرهُ قال : « في « سنة ١٢٢١ للتجسّد الالهيّ كان اثنان من الرهبان ذاهبَين الى « بولونيا للاجتماع العامّ . فبينما هما سائران في الطريق اذا برجلٍ متنطّق « الحقوين لائحة عليهِ امارات المسافرين انضمّ اليهما وقال : — الى « اين تذهبان — . قالا : — الى بولونيا لحضور المجمع العامّ — . قال المسافر : — عن ايّ قضايا يَبحث المجمع — . أَجاباهُ : — سيُحتِم فيهِ « على الاخوة بالتفرّق في اقطار المسكونة لينذروا بالانجيل الخليقة كلها

« وليبشّروا بملكوت الله — . قال المسافر : — افهل يوفد من الاخوة
« الواعظين الى بلاد المجر — . اجابهُ الاخوان : — سيوجّهُ اليها كثيرون
« ان سمح الربّ بذلك — . فعند جوابهما هذا قفز المسافر وصار يطير
« في الجوّ صارخًا بصوتٍ مهول قائلًا : — انّ رهبنتكم تولينا خرابًا
« وخجلًا — . وبعد ذلك استحال اللعين الى صورة دخان وتلاشى في
« الهواء . امّا الراهبان فحال وصولهما الى بولونيا قصّا القصّة على مار
« عبد الاحد وعلى الآباء الملتئمين هناك »

وفي هذا المجمع أرسلَ مار عبد الاحد نزرًا من الرهبان الى بلاد الانكليز والمجر لينذروا سكّانها ويشيّدوا فيها أَديرة عديدة . وبافتتاحهِ هاتين المملكتين للحقّ توصّل الى الاستيلاء على اوروبا جمعاء اذ انّهُ لم يبقَ منها جهة الاّ عُمّر فيها اديرة للاخوة الواعظين . ثمّ قسم رهبنتهُ الى ثمانية اقاليم وهي اسبانيا وبرفنسا (La Provence) وفرنسا ورومة ولُمبارديا (La Lombardie) والمانيا وانكلترا والمجر . وفرز ثمانية من الرهبان قلّدهم زمام الرئاسة عليها . ففي ستّة الاقاليم الاولى كان قد تشيّد نحو ستّين ديرًا في بحر تلك السنين الاربع . ولا يظنّ ظانٌّ انّ القدّيس كان يفوز دائمًا تحت ضبط عنايتهِ برجال مُتَسنّمين ذُرى العلم والفضيلة فيوجّههم الى الاصقاع الشاسعة بل بعكس ذلك قد مسّتهُ الضرورة الى إِرسال بعض المبتدئين في الرهبانيّة وفي مهنة الرسالة والتبشير . واذ كانوا يتعلّلون لديهِ بقصر باعهم في العلوم والقداسة كان يشجّعهم ويعدهم بامدادهِ ايّاهم بعون صلواتهِ قائلًا لهم :

« انطلقوا وأتوا بالثمار اليانعة وانذروا الآنام بالتوبة ونبّهوا الخطاة بجراءة
« وثبات ومحبّة فيسبغ الربّ عليكم وعلى أعمالكم بركاتهِ ولا يدعكم
« مُهملين البتّة » . فكان لكلامهِ احسن وقع في نفوس تلاميذهِ بل
كان يسبي عقولهم ويفتن قلوبهم فينقادون الى أوامرهِ بفرح وثقةٍ ويذهبون
كمالوفِ عادتهم ولا ذهب في مناطقهم ولا فضّة في اكياسهم والربُّ
شاملُهم ببركاتهِ السماويّة والروح القدس هاديهم ومرشدهم بانوارهِ .
فكنت تراهم يضحون في أسرع وقت من الرهبان الأفاضل والخطباء
الفصحاء وكانوا رغمًا عن حداثة سنّهم يبتّون الحكم القاطع في أُمور
التدبير والإرشاد ويحلّون أصعب المُعضلات اللاهوتيّة . وعند الحاجة
كان العليّ يكلّل طاعتهم باجرائهِ على ايديهم عجائبَ باهرةً . ولوُفورها
نجتزىء بذكر واحدة منها توضح جليًّا المنزلة الرفيعة التي خصّ بها الله
مار عبد الاحد . فقد كتب الاب تِيرّي دَابُلدا قال :

« وصل يومًا راهبان من اقليم بلاد المجر الى احدى القرى في
« حين التئام الشعب في الكنيسة لاستماع القداس . وعند نهايتهِ عادَ الجميع
« الى بيوتهم وأَغلق قيّم البيعة ابوابها ولبث الراهبان وحدهما تحت الاروقة
« الخارجيّة دون ان يمدّ لهما احدٌ يد المعونة . وبينما هما على تلك الحالة لحظهما
« صيّادٌ فقير فأَخذتهُ الشفقةُ على ذلهما واذ كان عاجزًا عن إعانتهما لم يجسر
« على دعوتهما الى منزلهِ . غير انهُ اسرع مع ذلك الى بيتهِ وأَظهر لامرأتهِ
« تعطّفهُ واشفاقهُ على حالة ذينك الراهبين بقولهِ لها :— آه يا ليتنا ملكنا
« ما بهِ نقوم بأَوَد هذين الراهبَين الواقفَين في اروقة الكنيسة لأنّي حقا

« مُحتاجُ الفكر في شانهما لكونهما غريبين ولا يتصدّق عليهما احد ويحويهما
« في داره — . فاجابتهُ امرأتهُ قائلةً : — ليس لي تحت يدي الآ قليل من
« الدخن يصلح للاكل — . قالت هذا وتناولت طبقاً لأمر بعلها كيس الدراهم
« وهي تظنّهُ فارغاً فوجدت فيهِ قطعتين صغيرتَين من النقود . فتهلّل الرجل
« فرحاً وقال : — أسرعي واشتري بالاولى خبزاً وبالثانية خمراً واطبخي القليل
« من الدخن واشوي بعض سُمَيكات — . فأطاعت المرأة امرَ رجلها
« وعاد هو الى الراهبَين فوجدهما لم يتحرّكا من مكانهما . فدعاهما بدعةٍ
« وتواضع وقادهما الى بيتهِ بلطف ومحبّة

« وبعد ان أنعشا قواهما المتراخية بالاطعمة الجبيّة المقدّمة لهما
« على مائدةٍ ازدانت بمزايا الفقر والبساطة أسديا الحمد والشكر للعناية
« الالهيّة وانطلقا داعيَين لمضيفهما بالخير والجزاء على احسانهِ وجميلهِ . وبالحقيقة
« نال ذلك الرجل جزاءهُ من اللهِ على صنيعهِ المبرور إذ انهُ منذ ذلك اليوم
« صار يملك كلَّ حين في منطقتهِ درهمين يسدّ بهما احتياج عيلتهِ . وكان
« كلّما أنفق أو وهب درهمَين وجد في الحال بدلهما اثنين آخرين . وهكذا
« ارتاش ووسَّع ثروتهُ بامتلاكهِ اراضي وبيوتاً ومواشي وما شاكل ذلك .
« وتكميلاً لهذهِ الخيرات والمنح رزقهُ الله تعالى ولداً ليرث غناهُ ويخلفهُ
« بعد موتهِ . وحين حصولهِ على ثروةٍ توازي علوّ منصبهِ حُرم الدرهمَين
« اللذين منحهُ ايّاهما الربّ واستمرّ دائماً صديقاً خلوصاً ومضيفاً عطوفاً
« للاخوة الواعظين »

وكانت معرفة مار عبد الاحد في تثقيف الرهبان بأَمَدٍ يسير منّة

عظمى نالها من الله . إذ إنهُ ما ارشدهم يوماً ودرّبهم الاّ اشركهم في روحهِ وقداستهِ . وعند الحاجة كان يتنبأ بما يأوّل لصالحهم . فصادف مرّةً راهباً عائداً من الوعظ فعلِم بإلهام الهيّ انهُ قد تعدّى القانون . فسألهُ عن ذلك فخجل وأقرّ لهُ بكلّ تواضع بانهُ قد قبل بعض دراهم فقاصّهُ القدّيس كما استحق

وحسبنا هنا ما ذكرهُ تيرّي دابُلدا قال : « كان مار عبد الاحد « قدوة وإماماً للجميع في حفظ القوانين الرهبانيّة . ولم يدع وسيلة الاّ « تشبّث بها ليحمل الرهبان على مراعاة القوانين بدقّة واحتراس . واذا ما « رأى احد الرهبان قادهُ الضعف البشري الى التقصير في واجباتهِ أدّبهُ « حالاً وأصلحهُ . على انّ صرامتهُ كانت محلاّةً بالوداعة والرّقة فكان « يعاقب المذنب دون ان يسبّب اضطراباً وانزعاجاً . وربّما اطّلع احياناً « على نقصٍ فرط من احد الرهبان فتعامى وتغاضى عنهُ وعبر دون ان « يفوهَ بكلمةٍ . حتى اذا ما لقي فرصة مناسبة بيّن للمذنب نقيصتهُ وحذّرهُ « منها بغاية الحلاوة بقولهِ : — ايّها الاخ لقد أسأتَ العمل باصطناعك « ما كان مُحرَّماً . فمجّد الله وأقرّ بذنبك — . وكان كالأَب الشفوق يرشّ على « نفوس رهبانهِ خمر التونيب والعقاب وكالامّ الرأوم يدهن قلوبهم ببلسم التعزية والسلوان . وكانت طريقة تسليتهِ فعّالة ومقرونة باللّطف والحنوّ « حتّى انّ الجميع اذا ما داهمتهم كوارث القلق والاضطراب التجأوا اليهِ « فعادوا فرحين مرتاحين »

« وكان يحافظ على نفوس رهبانهِ محافظتهُ على نفسهِ عينها

« وذلك بسنده اياهم وتركينه روعهم وحملهم على التمسّك بالصلاح
« والتقوى . وعليهِ فطبقاً لِما هو مكتوب : انّ سلوك الانسان وتبسّم
« شفتيهِ وكساء بدنهِ تنبئ بستائرهِ : كان مار عبد الاحد عند رؤيتهِ
« راهباً لابساً ثياباً مغايرة الشكل الرهبانيّ او مخالفاً روح الفقر
« الاختياريّ لم يحتمل ذلك بل كان يتلافاهُ في الحال . وكان كلّ يوم
« — اللهمّ انّ صدّهُ مانع كبير — يُلقي على مسامع الرهبان عظةً او خطاباً .
« وكان كلامهُ صادراً عن روح ايمانٍ راسخٍ ومقروناً بدموعٍ سخينة
« فكان يُثير في قلوبهم شواعر الخشوع والانسحاق بنوعٍ فائق لم يتوصّل
« اليهِ احدٌ غيرهُ »



الفصل الحادي والعشرون

في زهد مار عبد الاحد وعيشتهِ الرسوليّة

ها قد بلغنا السنة الحادية والخمسين من عمر مار عبد الاحد وحسب وصف الراهبة سيسيليا كان حينئذٍ قد ارتقى الى اوج الكمال روحاً وجسداً . فكان مع نحافة بدنهِ معتدل القامة أحمر الوجه قليلاً بهيّ العينين أشقر الشعر رأساً ولحيةً يسطع من جبينهِ نورٌ ياخذ بمجامع القلوب ويحمل على الاحترام والوقار . وكان بشوشَ الوجه اللهمّ ان داهمهُ حزنٌ من اجل القريب . ويداهُ كانتا لطيفتَين وصوتهُ يدلّ على العزّ والشرف . ولم يسقط شيءٌ من شعر رأسهِ فكان اكليلهُ الشعري مُتقناً وفيهِ بعض شعرات بيضاء . ومع تقدّمهِ في العمر تسامى في القداسة وبلغ شأوَ الكمال فتمّت فيهِ الفضائل النسكيّة والرسوليّة فكان راهباً زاهداً كثير التقشّف غير مُنفكٍّ عن الصلوة والتأمّل مولعاً بالسكوت ومتدقّقاً اينما وُجد في حفظ القانون الرهبانيّ . وحاثّاً جميع الرهبان على المحافظة عليهِ باحتراس . وكان لا يا كل ولا يشرب الاّ ما كان ضروريّاً لحياتهِ . وكان متمسّكاً بحفظ الاصوام والانقطاعات لا يُقنِعهُ لِمَنْحِ التفاسيح في هذا الشأن الاّ الاسباب القاطعة والدواعي الموجبة . فذات يوم إذ رأى وكيل الدير يُضيف الى الطعام الاعتيادي ماكولات زائدة اكراماً لحضورهِ بين الرهبان دعاهُ وقال لهُ : « انت ساعٍ في قتل الاخوة بهذهِ المآكل الزائدة » . ورغماً عن دعتهِ ولطفهِ برهبانهِ كان شديد الصرامة على نفسهِ . فكان يجلد نفسهُ بالسياط

ثلث مراتٍ · الاولى تكفيرًا عن خطاياهُ والثانية استغفارًا عن مآثم الخطاة والثالثة اسعافًا للنفوس المطهريّة · وكان يتنطّق بسلسلةٍ حديديّة ويلبس المسح نهارًا وليلًا ويتوشّح بثياب في غاية الرثاثة وذلك في كلّ آن وفي محضر كلّ من حضر فقيرًا كان او غنيًّا ذليلًا او جليلًا · ولم يَملك سوى ثوبٍ واحدٍ يلبسهُ صيفًا وشتاءً · واذ كان على يقين انّ الصلوة هي اعظم الوسائط للنسك والتعبّد والفوز بالكمال فلم يدع ليلةً دون ان يقضي منها جانبًا عظيمًا في الصلوة والتامّل · فكان عادةً يسهر حتى صلاة نصف الليل ومرارًا عديدة يحيي الليل كلّهُ في مسامرة ربّهِ وقدّيسيهِ · ومثلما جمع في حياتهِ بين العيشة الرسوليّة والنسكيّة قرن في صلواتهِ عبادة الجسد والحركات الخارجيّة بالتامّل والمناجاة الالهيّة · وقد ذكر المؤرّخون في شان صلاتهِ تفاصيل عديدة نستغني عنها بسردِ ما كتبهُ العلّامة الشهير الاب لكردير الدومنيكي في سيرة قدّيسنا قال :

« كان داب مار عبد الاحد صَرْف النهار في تادية الخدمة
« والمنفعة للناس وفي الوعظ والاسفار وقضاء الحاجات · وعند غروب
« الشمس وهو الوقت المخصّص بالراحة والسكينة كان يعتزل عن العالم
« وضوضائهِ ويسعى في طَلَب الاستراحة الضروريّة لنفسهِ وجسدهِ · فكان
« عند نهاية الستّار يبقى وحدهُ في الخورس اذ انّهُ منع الرهبان عن
« الاحتذاء بمثالهِ وذلك امّا انّهُ لم يشأ ان يضع على عواتقهم وِقرًا لا
« طاقة لهم على احتمالهِ وامّا خشيةً منهُ ان يقفوا على حقيقة معاطاته
« السريّة مع العزّة الالهيّة · ولكنّ بعضهم دفعتهم رغبتهم الشديدة

« في معرفة ذلك الى الاختفاء في الكنيسة رغماً عن احتراسهِ واحتياطاته
« فتوصّلوا الى مشاهدة اعمالهِ وممارساتهِ الليليّة . وتمكّنوا بعد ذلك
« من وصف ما فيها من الخواصّ المؤثّرة . وهاك خلاصة ما قالوا : حالما
« كان مار عبد الاحد يرى نفسهُ وحدهُ في الكنيسة مُكتنفاً بسواد
« الليل وسكونهِ ارتقى فكرهُ الى منبر العليّ وشرع بمفاوضتهِ بمناجاةٍ
« حبّية لا يُبينها نعت ولا يعبّر عنها لسان . وكان الهيكل المقدّس
« مسكن الطغمات الملائكيّة والصفوف المختارة يُمسي في عينيهِ كشخصٍ
« حيّ يدفعهُ الى الرقّة والتخشّع وسكب الدموع واصدار التنهّدات
« وارسال الصراخات التقويّة . وكان يدور في داخل الهيكل ويقف عند
« كلّ مذبح فيصلّي تارةً بانحناء كلّي وطوراً بالانكباب على وجههِ
« وأُخرى بالركوع . ومن حيث انّ المذبح علامة ذبيحة الصليب الالهيّة
« ومحلّ مواصلتها وتخليد ذكرها فاعتاد مار عبد الاحد ان يبدأ بالانحناء
« امامهُ تكريماً ليسوع المسيح كما لو كان المذبحُ شخصهُ الالهيَّ عينهُ .
« ثمّ يخرّ مُطرقاً راسهُ الى الارض وهاتفاً من اعماق قلبهِ هذهِ
« كلمات الانجيل المقدّس وهي : يا ربّ ارحمني انا الخاطىء : او هذهِ
« الاقوال النبويّة : لصقتْ بالتراب نفسي فأَحيني ككلمتك : او غيرها
« تضارعها . وبعد ذلك ينتصب فيشخص نظرهُ الى صورة المصلوب
« ويتوسّمها ثمّ يحني ركبتيهِ راكعاً على الارض مراتٍ عديدة متوالية
« وهكذا يستمرّ وقتاً طويلاً بين شخوصِ نظر وركوع ومن زمان
« الى زمان يقطع هذا التامّل العميق بهتافهِ وتلفّظهِ بعبارات كهذهِ :

« يا رب صرختُ اليك فلا تردّ وجهك ولا تسكت عنّي — . واقوالٍ
« غيرها ماخوذة من الكتاب المقدّس . وبعض الاحيان يُطيل سجداتهِ
« فلا يقدر ان يعرب بالكلام ما يحسّ بهِ في قلبهِ وكأنّهُ يرى السماء
« بعين عقلهِ فينشّف الدموع الجارية على خدّيهِ . ويضيق صدرهُ ولا
« ضيق فؤاد المسافر المقارب وصول وطنهِ . وشوهد أحيانًا أُخرى واقفًا
« ويداهُ مفتوحتان امام صدرهِ شبهَ فتح الكتاب فيَخال لمشاهديهِ انّهُ
« يقرأ فيهما باعتناء وانتباهٍ . او يرفعهما الى فوق عاتقيهِ كمثل من يتنصّتُ .
« او يحجب بهما عينيهِ للتامّل والتبحّر بنوعٍ بليغ . وكان لهُ اسلوبٌ آخر
« للصلوة لا يستخدمهُ الاّ نادرًا وذلك حين طلبهِ من الربّ نعمةً خارقة
« العادة . وهو ان ينتصب مستويًا مبسوطَ اليدين باعتدالٍ كلّيٍّ اقتداء
« بيسوع المسيح الذي عند موتهِ صرخ الى ابيهِ تلك الصراخات المؤثّرة
« التي بها فدى العالم . ويقول حينئذٍ بصوتٍ وقورٍ جليّ :— صرختُ اليك يا
« ربّ . اليك رفعتُ يديّ كلّ النهار اليك مددتُ يديّ . نفسي امامي كارضٍ
« مُحسرةٍ عديمة الماء فأسرع اذًا الى اجابة طلبتي — . وهذهِ كانت
« صلاتهُ حينما أَقام الشاب نابليون المارّ ذكرهُ غير انَّ الحاضرين لم
« يسمعوا الالفاظ التي فاهَ بها حينئذٍ ولم يجسروا ان يسأَلوهُ عنها »

وبعد صلاتهِ هذهِ الطويلة وتضحيتهِ بنفسهِ وجسدهِ مُحرقةً عن آثام البشر كان يَلِجُ قلالي الرهبان ويرسم عليهم اشارة الصليب ويرتّب ثيابهم إن كانت في اختلال . ثمّ يعود الى الكنيسة فينتظرهم للصلوة . واذا غلبهُ احيانًا النعاس أتكأ راسهُ الى جانب المذبح ليستريح

قليلاً . وعند قرع الناقوس لصلاة نصف الليل كان يجتمع بالرهبان في الخورس فتبدو منهُ في الصلوة حرارةٌ عجيبة تعلنُ انّهُ مفتون النفس والجسد بحبّ الله تعالى . فكنتَ تراهُ ينشد التسابيح بصوت رخيم جهوريّ ذاهباً من صفّ الى صفّ محرّضاً الرهبان على تمجيد الله بكل قواهم . واذا ما انتهت صلاة الليل قصد احدى زوايا الدير لينام فيها لانّهُ لم يملك قلاّية خصوصيّة كسائر الرهبان . وكان يرقد وهو لابسٌ ثيابهُ . وامّا مضجعهُ فلم يكن الاّ قليلاً من التبن او خشبةً او تابوت الموتى . وكثيرًا ما افترش الحضيض وتوسّد الحجارة ونام آمنًا . على انّهُ اعتاد ذلك منذ نعومة اظفارهِ فصار في حياتهِ الرسوليّة لا يرقد على فراشٍ البتّة سواء كان متعافيًا او مريضًا مقيمًا في الدير او مُسافرًا . وكان نومهُ زهيدًا جدًّا حتى انّهُ لقلّتهِ كان يستولي عليهِ النعاس في الغداء .

ولم تكن اسهارهُ وتقشّفاتهُ المتنوّعة سوى استعداداتٍ شتّى للحيوة الرسوليّة . فأَصبح بزهدهِ الفائق وتأمّلهِ السامي المتواصل متّقدًا بغيرةٍ لا تعرف مللًا ومالكًا عقلاً كاملاً مزيّنًا باسنى العلوم واغمضها وقلبًا ملتهبًا بسعير المحبّة الالهيّة فاضحى كجمرةٍ وقّادة تضرم كلّ من اقترب اليها . وبالاحرى نقول انّهُ درس يسوع في سرّ محبتهِ فعرفهُ وأَحبّهُ وتعلّق بهِ ولم يعد يطيق الابتعاد عنهُ فكان لا يملّ من زيارتهِ حتى صار على مثالهِ أي أَتون نارٍ لا يبتغي سوى التضرّم والتأجج . ولذا فكان الجميع يندهلون عجبًا من غزارة علمهِ في الإلهيات ويتقدون

حباً لله لدى سماعهم ارشاداتهِ ومواعظهُ . وذات يوم سالهُ شابٌ في أيّ كتاب درس فاقتبس العلوم الفائقة . فأجابهُ القدّيس قائلاً : « ايها الابن « العزيز اني قد طالعتُ كتاب المحبّة وعمّقتُ النظر فيهِ مفضّلاً اياهُ على « كلّ كتاب سواهُ اذ انّهُ قد تضمّن كلّ العلوم ». وهذهِ المحبّة اتت في قلبهِ بثمرة موهبة البكاء على انهُ كان كثيرًا ما يهمي العبرات في عظاتهِ وارشاداتهِ . وحين تقدمتهِ الذبيحة الالهيّة كنتَ تراهُ يتلهّف شوقاً وهياماً الى نزول ذاك الذي لم يزل متحدًا بهِ بل كانت تفيض دموعهُ حباً لهُ وشفقةً على بؤس القريب وخمود نار العبادة والايمان في قلوب المؤمنين

امّا في اسفارهِ فكان صبورًا ومتجلّدًا تجاهَ المصاعب وشديد الصرامة على نفسهِ وكثير اللطف بالقريب . ولم يُسافر قطعاً وحدهُ بل كان يصطحبُ دائماً احد الرهبان ويسير راجلاً بلا ذهب ولا فضّة . وان أضنكهُ التعب او افتقر الى شيء تجرّع تلك الغصّة بجميل الصبر بل بمزيد الفرح . وان نابت الرزيّة رفاقهُ واصابهم الضيق والعوز رقّ لحالهم واصطنع المعجزات لتعزيتهم وتقويتهم فكان يُكثّر الخبز ويحوّل الماء خمرًا لسدّ عوزهم وشفاء غليلهم ويصدّ الأمطار والعواصف عن انزال المضارّ بهم . وكان لا يقف في سفرهِ رغبةً في ارتياحهِ الذاتيّ بل لسدّ حاجة رفقتهِ . وعند خروجهِ من مدينةٍ او قريةٍ كان يتحفّى ويسير حاملاً حذاءهُ على كتفهِ لا يسمح لاحد ان يساعدهُ في ذلك . واشدّة تمسكهِ بالقانون كان يداوم على حفظهِ حتى في الاسفار . فكان يُقدّس كلّ يوم ويُلازم الصمت حتى الساعة الثالثة من النهار وبعدئذٍ ياخذ

بالتكلّم عن اللهِ او يترنّم باناشيد روحية . واذا صدمت بحجرٍ رجلهُ كان يُسرّ ويقول : « ها اننا نكفّر عن خطايانا » . واذ مرّ يوماً في طريق ذات صخورٍ وعرة وبصحبتهِ الاخ بنفيزي اخذ يتنهّد ويقول : « يا تعاستي « فانّي اضطررتُ مرّةً الى لبس حذائي في هذا المكان » . وربّما طلب الى رفاقهِ ان يسبقوهُ في المسير فيتخلّف ماشياً وراءهم ومتاملاً في بعض آيات الكتاب المقدّس فتجلّت في محيّاهُ علائم واضحة ناطقة بالعواطف المقدّسة الناشئة في قلبهِ الذائب حبّاً لله . وقد رأينا سابقاً انهُ كان اذا بلغ احدى المدن او القرى يخرّ على الارض سائلاً الله بدموع سخينة ان لا يُنزل على اهاليها نار الانتقام من جرّاء خطاياهُ ثمّ يلبس حذاءهُ ويذهب يروي غليلهُ في احد الينابيع خشيةً من انّ شدّة العطش تحملهُ على الافراط في الشرب فيكون بذلك سبب عثرةٍ للقريب . وكان يستضيف الاديرة موثّراً اياها على غيرها من المنازل . وكلّما لم يَجُد عليهِ احدٌ بالضيافة سعى متسوّلاً خبزَهُ من باب الى باب مُبدياً لمُحسنيهِ علائم الشكر الصحيح . وذُكر عنهُ انهُ جثا يوماً راكعاً عند قدمي احد القرويّين يشكر لهُ احسانهُ اليهِ بكسرة خبزٍ . وكان ياكل مهما قُدّم لهُ ما خلا اللحم وهذا لم يحلّل لنفسهِ اكلَهُ حتى في امراضهِ مع انهُ ما زال يجيز بسهولةٍ لرهبانهِ أكل اللحم حين السفر . وكان بعد غدائهِ ينفرد في خلوة ويباشر التامل في الكتاب المقدّس الذي كان يحمل دائماً من اجزائهِ انجيل مار متى ورسائل مار بولس . وكان في تاملهِ تارةً يبكي حزناً واسفاً وطوراً يُسرّ طرباً كانّهُ يفاوض احداً

واخرى يقبّل الكتاب الالهي وقلبهُ مفعم حرارة سماويّة او يحجب بيديهِ عينيهِ فيغوص في بحر التاملات العالية . وكان كلّ ليلةٍ يوقظ رفاقهُ اينما وُجد حتى في الامكنة التي لا تُقام فيها الصلوة الليليّة . ولم يكن يفعل هذا الاّ لشدّةِ حبّهِ ومزيد شكرهِ لله عزّ وجلّ لانهُ كان يرى نفسهُ غير كفوءٍ لتسبيح الله وتمجيد اسمهِ القدّوس . ولذا لم يزل يبذل قصارى جهدهِ في توسيع نطاق الرهبنة وتثقيف اعضائها لكي يُشركهم في روحهِ ويشاطرهم فضائلهُ وقداستهُ

هذا ما كان لمار عبد الاحد من الغيرة على مجد الله والكمال في العيشة النسكيّة والرسوليّة . فمن رآهُ مسافرًا راجلًا وحافيًا ومكتسيًا بثياب رثّة وحاملًا امتعتهُ على عاتقيهِ ومتسوّلاً قوتهُ شقّ عليهِ التصديق انهُ هو بعينهِ عبد الاحد الغزمانيّ الاثيل سليل الملوك والامراء والكاهن الغيور والخطيب البليغ الذي انشأ رهبنات شغفت قلوب الاكابر والاماجد واجتذبت اليها علماء فضلاء صاروا نور عصرهم وآية زمانهم

الفصل الثاني والعشرون

في وفاة مار عبد الاحد

إن امعنّا النظر في حالة مار عبد الاحد عند بلوغهِ منتهى حياتهِ رأيناهُ حقيقاً بان يقول صادقاً ما قالهُ مار بولس الرسول عن نفسه : « وقد « حضر وقت زوالي . قد جاهدت جهاداً حسناً . وقضيتُ سعيي « وحفظت الايمان وحُفظ لي منذ الآن اكليل البرّ الذي يهبهُ لي في « ذلك اليوم الرب الديان العادل » (٢ طيمثاوس ٤ : ٦ - ٨) . لانّهُ هو ايضاً على مثال الاناء المصطفى قد أُنتدب لدعوة فُضلى وهي اشهار الحرب العوان ضدّ الشيطان وأنصارهِ . وإحياء الايمان في قلوبٍ قد جمّدتها البرودة الدينيّة او صلّبها الكفر . وانارة عقول قد خيَّم فيها الظلام الغاسِق . فاحسن القيام بمهامّ تلك الدعوة ونصب غرس رهبنةٍ أَضحت في قليلٍ من الزمان شجرةً باسقةً متشعّبة الأَغصان تأوي الى ظلّها جماهير الناس على اختلاف طبقاتهم واحوالهم . وحكم الله تقدّست احكامهُ ان يكون النجاح حليف مار عبد الاحد والظفر اليفهُ فتكلّلت كلّ مشروعاتهِ ومساعيهِ الخيريّة بأَكلّة السعد والبركة فتكاثرت راهباتُهُ مع توالي الايّام وصرنَ يتبارينَ في الارتقاء الى ذُرى الكمال والقداسة . فكنَّ يلُحنَ كحمائم سرّيّة لا يزلنَ يصدحنَ داخل اديارهنَّ منشدات أرخم الترانيم وألطف التسابيح لفاطر الاكوان . وكنَّ بتنهّداتهنَّ وتقشّفاتهنَّ يخمدنَ نار رجز الله فيرقّ عزّ شأنهُ لبؤس البشر فيميل بالخطاة الى سبيل

التوبة ويُدخل الهراطقةَ المساكين حظيرةَ الخراف . امّا الرهبنة الثالثة الدومنيكيّة فكانت كغصنٍ نضير قد أفرع من دوحة الرهبنة الكُبرى فحمى في ظلّهِ جمًّا غفيرًا من العلمانيّين على اختلاف احوالهم وتفاوت مراتبهم فأدّوا للكنيسة المقدّسة خدمًا عظيمة تذكر وتُشكر . وامّا الرهبنة الكبرى التي اقامها مار عبد الاحد للوعظ والتبشير فبعد ان وطّد أُسَّها وشيّد اركانها وأدعم اصول قوانينها في المجمع الرهباني الثاني المارّ ذكرهُ أخذ بإرسال رهبانها الى بقيّة ممالك اوربا فخفض أَعلام الهراطقة ونكّس أَلوية حُماة التراخي والفساد ونشر مكانها رأيةَ الكثلكة والقداسة . هذا ولمّا كان ملآنَ فضلًا وفضيلةً فلم يزل يفيض من قلبهِ ماء النعمة والغيرة فيجري في قلوب مقاربيهِ فيشتركون في علمهِ وقداستهِ ويصيرون على مثالهِ رسلًا ونسّاكًا أفاضل . وبحصر الكلام نقول انّ مار عبد الاحد كان قد قضى سعيهُ اي انّهُ حارب الشيطان بردع الهراطقة فنال الغلبة الباهرة وأحيا الايمان بحمل الناس على العبادة والقداسة . وقرن الحيوة النسكيّة بالرسوليّة بانشاء رهبنتهِ الشريفة . وبذلك كلّهِ حافظ بكلّ حرص وامانة على الوديعة التي اودعهُ ربّهُ ايّاها واستثمر الوزنات التي سُلِّمت اليهِ وربح بها اضعاف اضعافها فسُرَّ بهِ قلب الله فحكم سبحانه وتعالى ان يدعوهُ اليهِ كدعوتهِ العبد الأمين بقولهِ : « نعمًّا يا عبدًا « صالحًا واميناً وُجدتَ على القليل . اميناً انا اقيمك على الكثير. ادخل الى فرح « سيّدكِ » (متى ٢٥ : ٢١) . وهكذا تمّ الامر فبينما كان مار عبد الاحد يومًا غارقًا في الصلوة والتأمّل وقلبهُ يذوب شوقًا الى الحظوةِ بمعاينة الرب

اذا بشابٍّ جميل المنظر مليح الشمائل تراءى لهُ وقال : « تعال اليّ يا
« حبيبي وافرح بصحبتي » . فعلم اذ ذاك ان قد دنت ساعةُ رحيلهِ
من دار المنفى . وبينما كان يوماً يحثّ بعض اصدقائهِ على بغض العالم
ويصف لهم سرعة زوالهِ ودناءة افراحهِ الفانية قال لهم : « اعزّتي انكم
« ترونني الآن سليم الصحة ولكن أيقنوا انّي قبل عيد انتقال مريم العذراء
« أُغادر الحيوة الدنيا » . وبعد هذا توجّهَ الى البندقيّة وزار الكردينال
أُغلين (Ugolin) واوصاهُ برهبنتهِ . ثمّ عاد في أواخر تموز الى مدينة بولونيا
فبلغ الدير مساءً وقد أخذ يشعر بمفاعيل التعب المُنهك . ورغماً عن ذلك
احضر لديهِ الراهبين رودُلف (F. Rodolphe) وفنتورا (F. Ventura)
فطفق يفاوضهما في امور الرهبنة وطال بهم الحديث حتى انتصف الليل .
وبعد انتهاء الفرض اعترتهُ الحمّى وأخذهُ وجعٌ مُؤلمٌ في رأسهِ وجوفه .
وأبى الرقاد على فراشٍ فانطرح على المسح وصار يتجرّع غصص المرض
بصبرٍ جميل بل بسرور جزيل . ثمّ استدعى اليهِ جماعة المبتدئين وسلّاهم
وأرشدهم . واستحضر بعدهم اثني عشر راهباً من اقدم الرهبان واعترف
امامهم اعترافاً عامّاً وهو يتنهّد تحسّراً وتأسّفاً كمن ارتكب اعظم
الجرائم والمعاصي . ثمّ حرّضهم على حفظ حواسّهم حفظاً تامّاً من كلّ
ما يشين النفس البارّة وقال : « انّ الله برحمتهِ الغير المدركة قد صانني
« من آفة الادناس الشهوانيّة فان رغبتم انتم اقتباس نعمة كهذهِ فاحذروا
« المعاشرات الذميمة الخطرة . ومن لم يشن رونق زنبقة النقاء بل صانها
« في نفسهِ خالصةً من كلّ شائبة فقد وجد نعمةً سابغةً في عين العليّ

« ونال حظوةً ومجدًا امام البشر . ألا اعتصموا بعُرى خدمة الله بحرارة « الروح وأَفرغوا كنائن المجهود في مراعاة الرهبنة الجديدة والمحاماة « عنها وتوسيع نطاقها . فاثبتوا بالقداسة ولازموا القوانين وانموا بالفضيلة » .
فبعد ان باح لرهبانهِ بسرّهِ وهو حفظهُ على الدوام رونق العفّة في نفسهِ متلألئاً ساطعاً استولى عليهِ الاضطراب والاغتمام فدعا الاخ فنتورا وقال لهُ : « لعلّي اخطأتُ باعلاني جهارًا طهارتي وكان الاولى بي ان أدع « ذلك السرَّ مخفيًّا » . ثمّ أودع رهبانهُ وصيّتهُ الأَخيرة بقولهِ : « يا اخوتي « وبنيَّ دونكم ما أخلفهُ لكم تركةً وميراثًا : املكوا المحبّة ولازموا التواضع « واقتنوا ثروة الفقر الاختياريّ » . ثمّ تهدّد باللعنات كلّ من يُدخل الغنى في رهبنتهِ

هذا ولم يكن الاطبّاء على يقين من دنوّ أَجلهِ بل انّما كانوا يؤمّلون شفاءَهُ ولذا أشاروا بنقلهِ الى كنيسةٍ خارج بولونيا مشيّدة على اسم مريم العذراء . فثقلت هناك وطأة مرضهِ فاحضر رهبانهُ . فأَقبلوا يصحبهم الاخ فنتورا رئيسهم . فأَرشدهم واقتبل سرّ المشحة الاخيرة بعبادة لاقت بقداستهِ . ثمّ شعر بانّ قيّم تلك الكنيسة كان يرغب ان يحفظ جسدهُ فيها فانكر عليهِ ذلك قائلًا : « لا سمح الله ان أُدفن الاّ تحت اقدام « اخوتي » . والتفت الى رهبانهِ وقال : « ألا احملوني الى ذاك الكرم « لأَموت فيهِ فيتيسّر لكم بعدئذٍ ان تدفنوني في كنيستنا » . فرجعوا بهِ الى بولونيا واذ لم يكن لهُ قلاّية خصوصيّة أنزلوهُ في قلاّية الاخ مونيتا (F. Monéta) والبسوهُ ثوبًا من ثيابهِ لانّهُ لم يكن لهُ سوى

الثوب الذي كان لابسهُ . وأضجعوهُ على فراش بيدَ انهُ ما عتم ان أمرهم ان يمدّدوهُ على الحضيض وقال لهم : « لا يليق بخاطئٍ مثلي ان يموت « على فراشٍ وفادينا الالهي قد مات على الصليب » . ففعلوا ما أراد . ودنا منهُ الاخ ردولفُ فأسند رأسهُ الى حضنهِ وصار يمسح عرق جبينهِ . وأحدق الرهبان بأبيهم وتوسَّموهُ يفارق الحيوة ففاضت مدامعهم وشرعوا يبكون وقد مزّقت سيوف الأسف والأسى قلوبهم . فرقّ الاب القدّيس لدموعهم وخاطبهم قائلًا : « كفّوا عن البكاء فانّي سوف اكون لكم في « السماء بعد مماتي انفع مما كنتُ في حياتي » . واذ سُئل ثانية عن موضع دفنتهِ أجاب : « تحت ارجل اخوتي » . ثمّ طلب اليهِ الاخ فنتورا ان يذكرهم امام الله . فرفع يديهِ ونظرهُ الى السماء وقال : « ايها الاب « القدّوس ها قد اكملتُ مشيئتك وحرست هؤلاء الذين اعطيتني « وحفظتهم فالآن استودعك ايّاهم فاحفظهم انت بنفسك واحرسهم » . قال هذا وأمرهم بتلاوة صلاة توديع النفس وفي اثناء ذلك كان يحرّك شفتيهِ مصلّيًا معهم وعند قولهم : « بادروا يا قدّيسي الله أقبلوا « يا ملائكة الرب خذوا روحهُ وقدّموها الى حضرة العليّ » . حرّك شفتيهِ مرّةً اخيرةً ورفع يديهِ الى السماء وأسلم روحهُ فطارت الى الوطن الحقيقيّ ومثلت بلا عيب امام عرش العليّ . وكان وقت الظهر يوم الجمعة وهو السادس من شهر آب سنة ١٢٢١ . وكان عمرهُ احدى وخمسين سنة

وحين وفاتهِ حظي الاخ غالا (F. Gala) رئيس دير بريشيا (Brescia) برؤيا رأى فيها سلّمين منحدرتين من السماء الى

الارض فتفرّس فيهما فرأى يسوع جالسًا على رأس احداهما ومريم امّهُ في أعلى الاخرى . وعاين على الارض بين السلّمين كرسيًا جالسًا عليهِ راهبٌ لم يتمكّن من معرفتهِ لانّ رأسهُ كان مغطّى كما يغطّى الاموات . وكان الملائكة بين نزولٍ وصعودٍ من السماء الى الارض مرتّلين ترانيم التهليل . واذا بيسوع ومريم شرعا يسحبان السلّمين والكرسيّ معهما فارتقى الراهب في العلاء حتى بلغ السماء فدخلها فأُغلقت ابوابُها وفي الحال غابت الرؤيا . فقام الاخ غالا المذكور وأسرع الى بولونيا فاطّلع انّ مار عبد الاحد مات يومَ حظي بالرؤيا وساعةَ رويتهِ ايّاها . فأعلن ذلك للشعب كلّهِ اكرامًا للقدّيس

وفي ذلك اليوم ايضًا كان الراهبان رَأُون (Raon) وتنكريد (Tancrède) مسافرَين الى مدينة تيفولي (Tivoli) فبلغاها قبل الظهر . فاستعدّ رَأُون للقدّاس وأعترف الى رفيقهِ تنكريد فعرض عليهِ قانونًا لاعترافهِ ان يذكر في القدّاس عبد الاحد أباهما المريض . فلمّا حان الوقت وشاء الاخ رَأُون ان يذكر في القدّاس مَن كان يعتقدهُ بعدُ مريضًا إذا بهِ اختطف بالروح فرأى مار عبد الاحد خارجًا من بولونيا محتاطًا بنور عجيب وعلى رأسهِ اكليل من ذهب وحواليهِ شيخان من أَوقر الشيوخ . وأوحى لهُ الربّ انّ مار عبد الاحد قد مات في تلك الساعة نفسها فدخل الوطن السماويّ بالعزّ والمجد

الفصل الثالث والعشرون

في دفنة القدّيس ونقل عظامهِ

وشاع في المدينة خبر وفاة مار عبد الاحد فتقاطر الناس للتشرّف والتبرّك بهِ وحضور دفنتهِ . وكان من جملتهم الكردينال أُغلين وبطريرك مدينة اكويلا (Aquilée) وعددٌ كثيرٌ من المطارنة ورؤساء الأديرة والأُمراء والشرفاء وجمٌّ غفيرٌ من الشعب . ولمّا شرع رهبانهُ بل اولادهُ في تكفينهِ رأوهُ مُنطقًا بسلسلةٍ حديديّة فتناولوها خاشعين وحفظوها عندهم ذخرًا ثمينًا . ثمّ حملوهُ الى الكنيسة وأخذوا بتلاوة فرض الموتى بقلوبٍ دامية وعيون باكية . بيدَ أنّهم لمّا وضعوهُ في الكنيسة وأحدقوا بهِ وتفرّسوا في جسدهِ النقيّ تداخلهم العزاء وصار حزنهم ينقلب شيئًا فشيئًا الى فرح . ولم يكن منهم الاّ انّهم قاموا ينشدون اناشيد النصرة والظفر . وفي ذلك الوقت عينهِ أتى الكنيسة البرتس رئيس دير القدّيسة كاترينا في مدينة بولونيا وكان من أخصّ أصدقاء مار عبد الاحد . فحالما رأى الرهبان والناس مزدحمين حول جسد القدّيس لم يتمالك أن ترامى عليهِ مُنتحبًا وأخذ يحضنهُ ويقبّلهُ بلوعةٍ ومحبّة فانتعش جسد القدّيس وعانق صديقهُ وكلّمهُ . فقام عنهُ البرتس مسرورًا وقال : « يا لها « من بُشرى ويا لهُ من خبرٍ أفعم قلبي فرحًا فإنّ عبد الاحد عانقني وقال « لي انّي سألحق بهِ في هذا العام وأنضمّ اليهِ بالمسيح ربّنا » . ثمّ صحّ قولهُ فمات في تلك السنة عينها

قال الاب لكُرديز : « وعند تمام ذلك المأتم العجيب الذي ازدوج
« فيهِ الحزن والفرح فقصرت عن نعتهِ بلاغة الواصفين وضع الرهبان
« جسد ابيهم في صندوق من خشب في غاية البساطة وأَطبقوهُ بلوحٍ
« سمّروهُ فيهِ بمسامير طويلة . وعلى هذا الوجهِ تركوا ذلك الجثمان
« المقدَّس لا حنوط تعطّرهُ سوى عطور فضائل صاحبهِ السامية . ثمّ حفروا
« لهُ داخل البيعة حفرةً وبنوا فيها لحدًا من الحجارة الصلبة الضخمة
« وأَنزلوا فيهِ الصندوق . ثمّ سُدَّ اللحدُ بصخرةٍ مُتقَنة النّحت فانطبق
« انطباقًا محكمًا بحيث لا تُمَدُّ اليهِ يدٌ جسورة فتعبث بهِ . امّا الصخرة
« فكانت عاريةً من كلّ نقش او أَثر يخلّد ذكر القدّيس الفضيل .
« وهكذا دُفن عبد الاحد تحت ارجل اخوتهِ كما شاءَ »

وكان في مدينة بولونيا طالبُ علمٍ يدرس في مدرستها العُليا ولم يتمكّن من مشاهدة مار عبد الاحد وقتَ دفنتهِ . فرآهُ في الليلة التالية في الحلم في كنيسة القدّيس نيقولا مُنتصبًا على عرشٍ فخيم ومحتاطًا بانوار المجد والسّناء فحار لبُّهُ لدى ذلك المنظر العجيب وقال للقدّيس : « الست انت المعلّم عبد الاحد المُتوفّى » . فأَجابهُ مار عبد الاحد : « لم أَمت يا ابني لانّ لي مولى غير متناهٍ في الجودة والصلاح وها انا « عائشٌ معهُ » . وفي الغداة ذهب ذلك التلميذ الى كنيسة القدّيس نيقولا فشاهد ضريحَ مار عبد الاحد في نفس المحلّ الذي فيهِ رآهُ جالسًا على العرش

وأَعلن الله تعالى قداسة صفيّهِ الكريم بعجائب باهرة عديدة

ابداها لزائري قبرهِ ولنادبي اسمهِ . فكان المرضى يتقاطرون الى ضريحهِ ويتبرّكون بهِ فينالون الشفاء ويرجعون عنهُ شاكرين ومعظّمين اسم مار عبد الاحد العزيز وشفاعتهِ القديرة لدى الله. وفاحت من قبرهِ روائح ذكيّة عجيبة عبقت دير مار نيقولا بأسرهِ فانعشت روح القداسة في نفوس الرهبان . ودام هذا الفوحان عدّة ايّام . على انّ الرهبان كانوا يجدّون في كتم كلّ الخوارق الظاهرة على قبر ابيهم لئلاّ يتحرّش بهم مبغضوهم ويرموهم بسهام الملامة والافتراء . وبلغ بالدومنيكيّين الخوف من تحريك سواكن المشنّعين مبلغًا عظيمًا حتى انهم صاروا يابون قبول النذور الكثيرة ويرفعون من على القبر العلامات الناطقة باكرام المومنين لابيهم القدّيس والصور التي كان الزائرون يجمّلون بها ضريحهُ شكرًا على النعم التي حازوها والكرامات التي أجراها فيهم . بل انّ الرهبان اذ تكاثروا عددًا ولم تعُد الكنيسة تسعهم قوّضوا حيطانها وابتنوا لهم كنيسةً غيرها فأضحى القبر عرضةً لمضارّ الشمس والمطر لا يُحرس ولا يؤدّى لهُ اكرام. ولكنّ قبور أولياء الله لا تفتقر الى سعي الناس ومعونتهم لإعلاء شان ودائعها الشريفة بل انّ انوار مجد الابرار يخرق الاحجار الصلدة كما تخرق الشمس طبقات الغمام المتصدّي لاشعّتها الوضّاءة . وذلك انّ المعجزات اخذت تتضاعف على قبر عبد الاحد وتتزايد عبادة المومنين لهُ يومًا فيومًا حتى الجئ الرهبان الى تحويل جسدهِ الى محلّ أليق . لكنّهم لم يجسروا على ذلك الصنيع من تلقاء نفوسهم فأرسلوا لهذهِ الغاية وفدًا الى الحبر الاعظم لِالتماس إباحة ذلك . وكان الجالس

حينئذٍ على السدّة البطرسيّة البابا غريغوريوس التاسع وهو الكردينال أُغلين (Ugolin) أليف مار عبد الاحد . فعند وقوفهِ على إهمالهم قبر ابيهم حتى ذلك الحين شرع يوبّخهم على توانيهم ثمّ قال : « لقد عرفت « حقّ المعرفة هذا الرجل الرسوليّ ولا شكّ لي في وجودهِ في السماء « واشتراكهِ بمجد الرسل الاطهار» . ثمّ فوّض الى مطران رافين (Ravenne) العناية في نقل عظام القدّيس

ولمّا كانت سنة ١٢٣٣ تقاطر من كلّ الجهات الى مدينة بولونيا جمّ غفيرٌ من الرهبان للاحتفال بعقد المجمع العام في عيد الفنطيقسطي . وبعد العيد بيومين أقبل مطران مدينة رافين وفي صحبتهِ أربعة اساقفة ومعهم الطوباوي يوردان السكسيّ (B. Jourdain de Saxe) وكان يومئذٍ رئيس الدومنيكيّين العام . وانضمّ اليهم كثيرٌ من الشرفاء والأُمراء وما ينيف على ثلاثمائة راهب . وبحضر هذا الجمهور الحافل فُتِح القبر . وعند فتحهِ فاحت رائحة ذكيّة عجيبة عبّقت ذاك المحفل العظيم . ودونك ما أخبر بهِ الطوباويّ يوردان السكسيّ في هذا الصدد قال : « انّنا قد استنشقنا بالحقيقة الشذا المنبعث من جسد مار عبد الاحد « ونشهد بما رأتهُ عيوننا وشعرت بهِ حواسّنا على انّنا لم نتوصّل الى الشبع « من استنشاق تلك الرائحة الذكيّة ولو استمرَرنا قرب جثمان مار « عبد الاحد ساعات عديدة . ثمّ رغماً عن طول الزمان لم نحسّ منها « بأدنى ضجرٍ فانّها كانت تُنعش في القلب شواعر التقى والحنو بل بدت « منها المعجزات . واذ كان الجسد المبارك يُلمَس بالايدي او بالمناطق او

« بشيء آخر كانت في الحال تعتلق به هذه الرائحة الفائقة الذكاء وتخرقهُ »
ثمّ نقلوا جسد القدّيس الى ضريح كانوا قد شيّدوهُ في الكنيسة .
فتكاثرت العجائب الباهرة . ولمّا بلغ البابا غريغوريوس التاسع خبر
تلك الأمور العجيبة عقد مجمعاً وأصدر براءة أعلن فيها انتظام مار
عبد الاحد في سلك القدّيسين . ثمّ عيّن للاحتفال بعيده اليوم الخامس
من شهر آب . وبعد ذلك نقلهُ البابا اكليمنضس الثامن الى اليوم
الرابع من الشهر عينه . وهاك شيئاً من جملة ما قالهُ البابا غريغوريوس التاسع
في البراءة التي فيها ثبّت قداسة مار عبد الاحد

« ... وكان عبد الاحد منذ صغره حاصلاً على جنانٍ حاكى قلوب
« الشيوخ . فكان يكبح جسدهُ بلجام التقشفات ويتطلّب صانع الحيوة .
« واذ وقف نفسهُ لله تحت قانون مار اوغسطينوس حذا حذو سموئيل في
« خدمة الهيكل المتواصلة وضاهى دانيال بحرارة اشواقه الدينيّة وأمسى
« بطلاً شجاعاً سلك سبيل البرّ ومنهج القدّيسين . ولم يكد يستريح
« من حراسة هيكل الرب والقيام بخدم الكنيسة المحاربة . وكان يُخضع
« الجسد للإرادة والحواسّ للعقل متحداً بالله جادّاً في التبحر فيه بوفور
« تأملاته دون ان ينقص في قلبه وفي اعماله محبّة القريب . وبينما كان
« يطعن الشهوات الجسديّة طعن المنون ويُشرق نوراً ساطعاً على عقول
« الكفرة العميان ارتعبت جماعةُ الهراطقة كلّها وتهلّلت كنيسة المومنين
« برمّتها . فنمت فيه النعمة مع العمر وافعمتهُ غيرتهُ على خلاص النفوس
« فرحاً لا يوصف . ولم يكتفِ ببذل نفسه كلّها في الوعظ بكلام الله

« بل جذب الى الخدم الانجيليّة عددًا وافرًا من الناس حتى انهُ استحقّ
« ان يُحصى في عداد الآباء ويُعدّ عملهُ بين اعالهم . واذ أضحى راعيًا وزعيًا
« في شعب الله أنشأ بافضالهِ رهبنةً جديدة للواعظين نظمها بامثالهِ ولم
« يَلَّ من تاييدها بالاعاجيب الباهرة المثبّتة . فمن جملة الآيات التي
« أجهرت قدرتهُ وقداستهُ مدّة حياتهِ على الارض انهُ أعاد النطق الى الخرس
« والبصر الى العميان والسمع الى الصمّ والحركة الى المشلولين والصحّة الى
« جمّ من المرضى . وبهذهِ البواهر تجلّت الروح العجيبة التي كانت تعمل
« فيهِ . فنحن عرفناهُ اذ آلفناهُ وقتًا كُنّا متقلّدين في الكنيسة منصبًا
« أَدنى ورأينا في منظر حياتهِ دليلًا ساميًا ناطقًا بقداستهِ . والآن بعد
« ان ثبّت لنا حقيقةَ عجائبهِ شهودٌ ثقة نعتقد مع قطيع الرب المسلَّم الى
« عنايتنا انهُ بنعمة الله يمكنهُ ان يفيدنا بصلواتهِ وانهُ بعد ان عزّانا على
« الارض بمودّتهِ الانيسة يساعدنا في السماء بحمايتهِ القديرة . وعليهِ
« فبمشورة اخوتنا الكرادلة وجميع الاحبار مُعاوني الكرسيّ الرسوليّ
« وبرضاهم عزمنا ان ندوّن اسمهُ في سجلّ القدّيسين . فنجزم جزمًا
« قاطعًا ونامركم جميعًا بهذا المنشور عينهِ ان تعيّدوا عيدهُ باحتفالٍ وتجعلوا
« غيركم ايضًا ان يعيّدوهُ وذلك في اليوم الخامس من آب اي ليلة
« اليوم الذي في مثلهِ رمى حملَ الجسد ودخل المدينة المقدّسة حاصلًا على
« استحقاقات وافرة وذلك لكي يرقّ لنا قلب الله بصلوات صفيّهِ الذي
« عبدهُ ومجّدهُ على الارض فيمنحنا النعمة في هذا العالم والمجد في الآخرة .
« وفضلًا عن هذا نرغب ان يكثر المسيحيّون من زيارة ضريح هذا المعترف

« العظيم وان يكرّموهُ كما يليق اذ انّهُ يشرّف الكنيسة الكاثوليكية
« باعاجيب باهرة · ونمنح غفران سنةٍ واحدة لجميع المومنين الذين
« يزورون قبر القدّيس بعبادة واحترام يوم عيدهِ وهم تائبون عن خطاياهم
« وقد اعترفوا بها · ونحن معتمدون بذلك على رحمة الله الضابط الكلّ
« وعلى سلطة الرسولين القدّيسين بطرس وبولس · اعطي في ريتي (Riéti)
« في اليوم الثالث من تموز في السنة الثامنة من حبريتنا »

وبعد ان أُعلن عبد الاحد قدّيسًا أَخذت المعجزات تتكاثر في اوربا جمعاء وفاح أَريج قداستهِ ممتدًّا في كلّ الأَصقاع · فنال البرء بشفاعتهِ كثيرٌ من السِقام والمُقعَدين · وفي هذا الشان قد ذُكرت وقائع شتّى منها انّ قدّيسنا الجليل أحيا بعد وفاتهِ سبعة اموات معروفة اسماؤهم وامكنتهم وتفاصيل الأَعاجيب المصنوعة في شانهم · وحبًّا بالاختصار نجتزئ بذكر قصّة ميتين أَقامهما مار عبد الاحد فنقول نقلًا عن الاب تيرّي دَابُلدا :

كان لاحدى الاميرات عبدٌ مملوك وكان ذات يومٍ يصطاد مُتطرّفًا احد الجداول المسمّى كريس (Cris) · واذ لم يكن شديد الحرص على صيانة نفسهِ من الاخطار تدهور في عمق الجدول وذهب غريقًا · ثمّ أُخرجت جثّتهُ من الماء وحُملت الى مولاتهِ فأَخذت ترثيهِ متوجعةً لفقدهِ لانّهُ كان امينًا · وثارت في نفسها عواطف الثقة بقدرة مار عبد الاحد فشرعت تتضرّع اليهِ طالبةً منهُ ان يُقيم عبدها واعدةً انّها تذهب حافيةً لزيارة ذخائرهِ في سومُلو (Sumulu) وانّها ستطلق الحرّية لهذا العبد المسكين · فعند ذلك انتعش الميت وقام امام جميع الحضار ·

فأخذتهُ سيّدتهُ وتوجّهت حسب وعدها الى سوملو وقصّت على رئيس الدير والرهبان كيفيّة انبعاثهِ وقدّمتهُ لهم مطلق الحريّة

وكان لاحد الشرفاء نجلٌ نجيب اسمهُ لدسلاس (Ladislas) فاعترتهُ حمّى قتّالة ذهبت بحياتهِ . فكفّنوهُ وتهيّأوا لدفنهِ . فقويت اذ ذاك أُمّهُ على الحزن الشديد المذيب قلبها فقامت وأمرت ان يُحضر لها الكاهن حالاً . فلمّا حضر نذرت بين يديهِ نذرًا وأَخذت تندب بحرقة قلبٍ القدّيس عبد الاحد . فانتعش ابنها في الحال فنهضت والفرح ملء قلبها وأخذت ابنها واتت بهِ سوملو وبحضر الكاهن وزوجها مُعاينَي الاعجوبة قصّت كيفيّة وقوعها وأسدت الحمد والشكر لله تعالى على صنيع مار عبد الاحد الجليل

فبهاتين الاعجوبتين وبكثير مثلهما انتشرت عبادة مار عبد الاحد ايّ انتشار في اوربا كلّها وبلاد فلسطين . بيدَ انّهُ اذ كان أَهالي مدينة بولونيا قد امتازوا بحرارة عبادتهم لمار عبد الاحد اقاموهُ شفيعًا لهم ومحاميًا عن مدينتهم وطفقوا يعظّمون كلّ عام عيدهُ بمزيد الاحتفال وبمجالي الابّهة . وكانوا مع تعاقب الازمان وتكاثر الاعاجيب الظاهرة بشفاعتهِ يلومون نفوسهم محتسبين الضريح غير لائق بقدّيسٍ هذهِ عظمة قداستهِ . وعليهِ فقد نقلوهُ اربع دفعات معدّين لهُ كلّ مرّةٍ قبرًا فاق سابقهُ جمالاً وظرافةً وفي آخر الأَمر شيّدوا لهُ في القرن الخامس عشر ضريحًا في غاية الإتقان والبهاء ونقلوهُ اليهِ سنة ١٤٧٣

هذا وبمعزل عن العجائب الباهرة قد خلّد اسم قدّيسنا وذكرهُ

وعظ رهبانهِ وغيرتهم الرسوليّة النارية على مجد الله وخلاص النفوس. فإنّ المومنين قد شعروا انّ اولاد مار عبد الاحد غب تثبيت ابيهم قدّيساً قد نالوا قوّةً عجيبةً ومهارةً فائقة في الوعظ والانذار وصاروا يضاهونهُ بالعلم والبلاغة حتى انَّ رهبنتهم لم تلبث أن دُعيت رهبنة الحقّ. واذ كان العلم باطلًا دون محبّة الله صار الاولاد يتمثّلون بقداسة ابيهم ايضاً كما اقتدوا بعلومهِ ومعارفهِ ساعين في تتبّع الدعوة التي انتُدبوا اليها. فما عتم الناس ان تحقّقوا انّ موت مار عبد الاحد شبيهٌ بحبّة الحنطة التي لا تموت الاّ لتُثمر باضعاف. اي نعم وهذا لا مراء فيهِ فالعالم باسرهِ يشاهد انّ رهبنة الاخوة الواعظين قد نبغ فيها رجالٌ كريمون وعلماء مشهورون وقدّيسون عديدون سطعوا في سماء الكنيسة سطوع الكواكب في السماء وحاموا عن هذهِ الأُمّ الرأوم محاماة الابطال الشجعان وحسبنا ان نذكر مار البرتس الكبير والقدّيس توما الاكويني كوكب الغرب وشمس المدارس ومار منصور الفراريّ العجائبي والحبر القدّيس مار بيوس الخامس. اجل لقد تخلّدت على الارض قداسة مار عبد الاحد مع توالي الازمان ولتحقيق ذلك لنسرّح قليلًا انظارنا في كتب سِير القدّيسين. وما لنا نلتفت فقط الى الزمان الغابر ها قد مرّ سبعة قرون على ارتحال مار عبد الاحد الى دار الخلود ونحن نلقي رهبنتهُ زاهية ونامية في العلم والقداسة حتى انّ رؤية أخمل رهبانها المُتقفّين آثار ابيهم الجليل تُلقي الرعبة في قلوب اعداء الايمان. وامّا العالم الكاثوليكيّ فيهتز الآن طرباً ويتهلل مفتخراً بهذهِ الرهبنة التي

لا تزال تضارع الكنيسة الحقيقيّة في خواصّها اعني بقداسة اعضائها ووحدة رسومها وانبثاث مبشّريها في اربع خوافق المعمور . هذا ولمّا كانت رهبنة مار عبد الاحد لا تزال تشاطر الكنيسة احزانها وافراحها لاق بنا بل تحتّم علينا مسكًا للختام ان ننعتها بما ننعت الكنيسة المقدّسة الكاثوليكيّة قائلين مع أحد العلماء المشاهير : « انّ رهبنة مار « عبد الاحد تحيا على مثال كنيسة الرب . ولا تقوى عليها ابواب الجحيم »



فهرس

وجه





